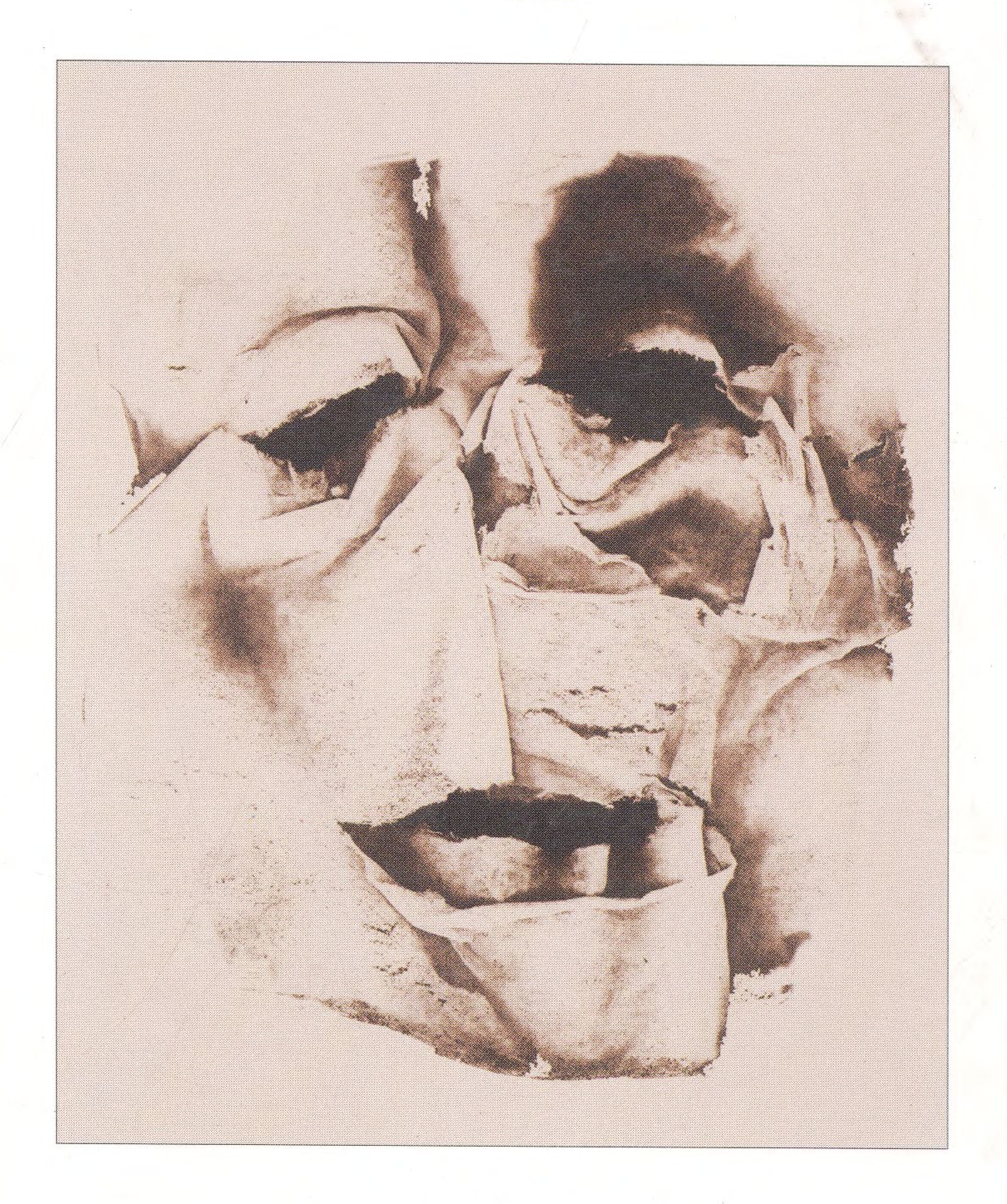
كريستا فولف

ميديا . أصوات

رواية



ترجمة: سالمة صالح

منشورات الجمل

كريستا فولف: ميديا . أصوات رواية

كريستا فولف

ميديا . أصوات

رواية

ترجمة: سلامة صالح

منشورات الجمل

كريستا فولف، روائية وناثرة، ولدت ١٩٢٩ في لاندسبيرغ بالمانيا. درست الأدب الألماني في يينا ولايبزغ. عملت بعدها خبيرة في إحدى دور النشر الألمانية. ثم تفرغت بعد ذلك للكتابة حيث تعيش الآن في برلين. حصلت أعمالها الروائية ودراساتها الأدبية على عدد كبير من الجوائز الوطنية والعالمية.
من رواياتها: السماء المشطورة ١٩٦٣؛ تأملات حول كريستا ت. ١٩٦٩؛ الأموات يبقون شبابا ١٩٦٨؛ نموذج طفولة ١٩٦٩؛ كاساندرا ١٩٨٣؛ (صدرت ترجمتها العربية عن منشورات الجمل ١٩٩٩)؛ في الطريق إلى التابو (نصوص ١٩٩٠ – ١٩٩٤)، ميديا. أصوات ١٩٩٣.
ولدت سالمة صالح ١٩٤٢ في الموصل/العراق. درست القانون في جامعة بغداد والصحافة في جامعة لايبزج في ألمانيا حيث حصلت على الدكتوراه عام ١٩٨٦ عن أطروحة حول اتجاهات تطور الصحافة في العالم. عملت في الصحافة العراقية والعربية. تعيش في برلين منذ عام ١٩٨٣. أصدرت العديد من الأعمال القصصية منها: النهوض، رواية (بيروت ١٩٧٤)، التحولات، مجموعة قصص (دمشق ١٩٧٥)، زهرة الأنبياء، ذكريات (دمشق ١٩٩٤)، شجرة المغفرة، مجموعة قصص (دمشق ١٩٩٦). وفي الترجمة: انغبورغ باخمان: العام الثلاثون، قصص (كولونيا ١٩٩٨)؛ كريستا فولف: كاسندرا، رواية، (بيروت ١٩٩٩).

كريستا فولف: ميديا . أصوات، رواية، ترجمة: سالمة صالح
رسمة الغلاف: سالمة صالح

الطبعة الأولى، ٢٠٠١ كولونيا – المانيا
نُشر هذا الكتاب باتفاق خاص مع الناشر الألماني

Christa Wolf: Medea . Stimmen

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

ساهمت مؤسسة أنترناسيونس مشكورة في بعض تكاليف هذه الترجمة

الأصوات

ميديا	كولخيسية. إبنة الملك أبيتس والملكة ايديا. أخت كاليوبا وأبسيرتوس.
ياسون	بحار، قبطان سفينة "أرغو"
أغاميدا	كولخيسية. تلميذة ميديا سابقا
أخاماس	كورينثي. الفلكي الأول للملك كريون
لويكون	كورينثي. الفلكي الثاني للملك كريون
غلاوكا	كورينثية. إبنة الملك كريون والملكة ميروبا

شخصيات أخرى

كريون	ملك كورينث
ميروبا	ملكة كورينث
ايفينوي	إبنتها المقتولة
تورون	كورينثي. مساعد أخاماس
ليسا	كولخيسية. شقيقة ميديا بالتربية ورفيقتها
أرينا	إبنة ليسا
كيركا	ساحرة. خالة ميديا
بريسبون	كولخيسي. منظم الاحتفالات في كورينث
تيلامون	رفيق ياسون. بحار
فريكسوس	من جولكوس، أتى بالفروة إلى كولخيس

بيلياس	عم ياسون في جولكوس
شايرون	مربي ياسون في الجبال التيسالية
مايدوس، فيريس	ولدا ميديا وياسون
اويستروس	نحات، حبيب ميديا
أريتوسا	من كريت، صديقة ميديا
العجوز	من كريت، حبيب أريتوسا وصديقها

ننطق باسم ما فندخل عصرهم، حيث تسمح الجدران بالمرور، لقاء مرغوب فيه، إنها ترد من عمق الزمن على نظرتنا دون تردد. قاتلة الأطفال؟ هذا الشك أول مرة. رفع المرفقين بسخرية، إعراض، إنها لم تعد تحتاج إلى شكنا، ولا جهودنا لأن نكون منصفين معها. تذهب. تسبقنا؟ تعود من عندنا؟ فقدت الأسئلة معناها في الطريق. لقد أرسلناها في الطريق، تأتي لمواجهتنا من عمق الزمن، نترك أنفسنا نسقط مارين بالعصور التي لا تتحدث إلينا بوضوح كما يفعل عصرها فيما يبدو. لا بد أن نلتقي في وقت ما.

نهبط إلى القدماء، أهم يتعقبوننا؟ بنفس الكثرة. مد الأيدي يكفي. إنهم ينتقلون إلينا ببساطة، ضيوف غرباء، مساوون لنا. نحن نملك المفتاح الذي يفتح جميع الأحقاب، نستخدمه أحيانا بلا حياء، نلقي نظرة عاجلة عبر فتحة الباب، مولعين بالأحكام المتسرعة، ولكن لا بد أن يكون ممكنا أيضا أن نقترب من بعضنا خطوة خطوة، بتهيب أمام الممنوع، راغبين، أن ننتزع من الأموات سرهم ليس دون ضآلة. الاعتراف بضآلتنا، علينا أن نبدأ بهذا.

تذوب آلاف السنين تحت ضغط كبير. هل ينبغي أن يبقى الضغط؟ سؤال لا جدوى منه، الأسئلة الخطأ تزور الهيئة التي تريد أن تنفصل من عتمة سوء التقدير. علينا أن نحذرها. سوء التقدير يشكل لدينا نظاما متكاملا، لا شيء يستطيع دحضه. أم أن علينا أن نجرؤ على التوغل في عمق سوء تقديرنا وسوء تقديرنا لأنفسنا، أن نذهب

، مع بعضنا، واحدا بعد الآخر، وفي آذاننا ضجة انهدام
'جدران. قرينا، هذا ما نأمله، الهيئة ذات الاسم السحري، التي تلتقي
بها الأزمنة، عملية مؤلمة. فيها يلتقي بنا زماننا. المرأة الجامحة.
نسمع الآن أصواتا.

كل ما ارتكبته حتى الآن،

أسميه عمل حب ...

أنا الآن ميديا،

نمت طبيعتي من خلال المعاناة.

سنيكا، ميديا

الآلهة الميتة تحكم أيضا. يقلق التعساء أيضا على حظهم. لغة الحلم، لغة الماضي. ساعدوني للخروج، لأتسلق النفق، بعيدا عن الصليل في رأسي، لماذا أسمع صليل الأسلحة، أتراهم يقتتلون؟ من يقتتل يا أمي؟ أهم أبناء مدينتي كولخيس، أسمع ألعابهم القتالية في ساحتنا الداخلية، أم أين أنا، أيزداد الصليل ارتفاعا باطراد. العطش. يجب أن أفيق. يجب أن أفتح عيني. القدح قرب المضجع. الماء البارد لا يطفيء العطش وحده، إنه يسكت أيضا الضجيج في رأسي، هذا ما أعرفه. لقد جلستِ هنا إلى جانبي يا أمي، وحين أدرتُ رأسي، كما أفعل الآن، رأيتُ فتحَة النافذة، مثل هذا المكان، أين أنا، لم تكن هناك شجرة تين، كانت هناك محبوبتي شجرة الجوز. هل عرفت يا أمي أن المرء يمكن أن يشتاق إلى شجرة؟ كنت طفلة، أكاد أكون طفلة، لقد طمثت للمرة الأولى، ولكن لم أكن لذلك مريضة، لم تجلسي من أجل ذلك بقربي وتمضي معي الوقت، تستبدلي لفائف الأعشاب على صدري وجبيني، تمسكي بيدي قريبا أمام العينين وتريني الخطوط في راحتي كفيّ، اليسرى أولا ثم اليمنى، تعلميني كيف تُقرآن بشكل مختلف، كثيرا ما تهربت من رسالتهما، أطبقتُ يدي، شبكتهما ببعضهما، وضعتهما على الجروح، رفعتهما إلى الإلهة، حملت الماء من البئر، حكتُ الكتان موشى بزخرفنا، دفنتهما في شعر الأطفال الدافيء. مرة يا أمي، في زمن آخر، أحطتُ رأسك بكلتا يدي مودعة، بقي شكله مثل طبعة في راحتي، للأيدي ذاكرة أيضا. كل بقعة من جسد ياسون لمستها هاتان اليدان، هذه الليلة بالذات، ولكن هل

الوقت الآن صباح، وأي يوم؟

هدوء. إهدأي تماما، على مهل. تفطني. أين أنت. أنا في كورينث. كانت شجرة التين أمام فتحة نافذة كوخ الطين عزاء لي، حين طردوني من قصر الملك كريون. لماذا؟ يأتي هذا فيما بعد. هل انتهى الحفل، أم ينبغي أن أذهب، كما وعدت ياسون بذلك في الآخر. لا تستطيعين أن تخذليني الآن يا ميديا، يتوقف الكثير على هذا الحفل. ليس بالنسبة لي، قلت له، وأنت تعرف هذا أيضا، ليكن، سآتي، قلت، ولكن هذه هي المرة الأخيرة. كنتِ قد مررت على ذلك الخط الصغير في اليد اليسرى بإظفركِ، قلت لي ماذا يعني لو أنه تقاطع مع خط الحياة ذات يوم، لقد عرفتني جيدا يا أمي، ألا تزالين حية.

أنظري هنا. هنا يقطع هذا الخط الصغير الذي أصبح أكثر عمقا الخطٌ الآخر. انتبهي، قلت لي، الكبرياء تجعل داخلك يبرد، قد يصح هذا، ولكن الألم يا أمي، الألم يترك أثرا من الجدب أيضا. لن أقول هذا. حين صعدنا على ظهر الـ"ارغو"، رأيت عينيكِ رغم العتمة ولا أستطيع أن أنساهما، أحرقتْ نظرتهما فيَّ كلمة لم أكن قد عرفتها من قبل: الذنب.

يرتفع الصليل الآن ثانية، إنها الحمى، ولكن يتراءى لي كما لو أنني كنت قد جلست أمس وحسب إلى هذه المائدة، ليس قرب ياسون مباشرة، إبقِ هنا يا أمي، من أين يأتي هذا التعب، أريد أن أنام قليلا وحسب، سأنهض حالا، ألبس الثوب الأبيض الذي حكتُه وخطتُه بنفسي كما علمتِني، ثم نمضي ثانية معا في ممرات قصرنا، وسأكون مسرورة، كما كنت وأنا طفلة حين أمسكت بيدي وقدتني في الباحة،

إلى البئر في وسطها، هل تعرفين أنني لم أجد في أي مكان أجمل منه، وترفع إحدى النساء لنا الجردل، وأغرف من ماء النبع وأشرب، أشرب وأتعافى.

هو ذاك؛ إما أنني جننت أو أن مدينتهم تأسست على جريمة. كلا، صدقيني، إنني أفكر بوضوح، أنه واضح لي تماما، ما أقول أو أفكر فيه، لقد وجدت الدليل، لمسته بهاتين اليدين، آه، ما يهددني الآن ليس الكبرياء. لقد تبعتها، تلك المرأة، ربما أردت أيضا أن ألقن ياسون الذي احتمل أن أجلس في نهاية المائدة بين الخدم درسا، هذا صحيح، لم أحلم بهذا، كان هذا أمس. على أية حال إنهم الخدم ذوو المرتبة العالية، قال شاكيا. لا تثيري فضيحة يا ميديا، فقط ليس اليوم، أرجوك، أنت تعرفين ما يتوقف على ذلك، مكانة الملك أمام كل هؤلاء الضيوف الأجانب. آه ياسون، لا تجهد نفسك. لم يدرك بعد أن الملك كريون لم يعد يستطيع أن يكدرني، ولكن ليس هذا مهما، يجب أن أجعل رأسي خاليا. يجب أن أعد نفسي أنني لن أتحدث عن اكتشافي مع أنسي أبدا، الأفضل أن أفعل ما كنا نفعله أطفالا، كالكيوبا وأنا، هل تعرفين هذا يا أمي، كنا نلف سرنا لفا محكما في ورقة ونأكلها ونحن ننظر بثبات في عيون بعضنا، كانت طفولتنا، كلا كانت كولخيس كلها مليئة بأسرار مظلمة، وحين وصلت هنا كمستجيرة في كورينث مدينة كريون المؤتلقة، فكرت بحسد: ليس لهؤلاء هنا أسرار. وهذا ما يعتقدونه هم أيضا عن أنفسهم، وهو ما يجعلهم مقنعين، ينبهونك بكل نظرة، بكل حركة من حركاتهم الرصينة إلى انه يوجد مكان في العالم، حيث يستطيع الإنسان أن يكون سعيدا، وفيما بعد فقط أدركت أنهم

يؤاخذونك جدا إذا ما شككت في سعادتهم. ولكن ليس هذا مهما، فقط ماذا يحدث لرأسي فيترك الأفكار تنطلق أسرابا، لماذا يصعب علي أن أصطاد من السرب الفكرة التي احتاجها.

كان لي الحظ في أن أجلس إلى مائدة الملك بين صديقي لويكون، الفلكي الثاني للملك وتيلامون، أنت تعرفينه أيضا يا أمي، كان ذلك البحار الذي جاء مع ياسون إلى قصرنا، بعد أن كانوا قد رسوا على شاطيء كولخيس، وهكذا لم يكن علي أن أضجر في العشاء الإحتفالي، فلويكون رجل ذكي، أحب الحديث معه، ثمة تعاطف بيننا، وتيلامون صعب المراس قليلا، لكنه يحفظ لي الولاء منذ ذلك العصر في كولخيس قبل سنوات كثيرة جدا، لا أكاد أستطيع عدها، إنه يحاول في حضوري أن يكون فكاهيا وفاحشا بشكل خاص، كان ثمة ما يضحكنا، وأنا في ذلك اليوم تخليت قاصدة عن سلوك إبنة الملك، التي أنا هي على أية حال، لأعاقب الملك من مكاني المتدني، أليس كذلك يا أمي، إبنة ملكة عظيمة. لم يكن صعبا علي أن أثير الاهتمام وأن أطالب بالاحترام، حتى من المبعوثين الغرباء من ليبيا، من جزر البحر المتوسط، تيلامون تواطأ معي، وضعنا ياسون المسكين في مأزق، ممزقا هنا وهناك بين الخضوع لملك نحن تابعين له، وغيرته، شرب نخبي خلسة وتضرع إلي بالنظرات ألا أغالي في مجوني، ولكن حين كان الملك يستخدم واحدة من كلماته الرنانة كان عليه ألا يحول نظره عنه. في طرفنا من المائدة ساد المرح، الآن أتذكر كل شيء. كيف بدأ الرجلان إلى جانبي يتخاصمان من أجلي، كيف بدأ لويكون، الفارع النحيف الذي تنقصه اللباقة قليلا، ذو الجمجمة البيضوية، الذي

يتقبل المزاح، لكنه نفسه لا يعرف أن يمزح، يمتدح بجدية قدراتي كشافية أمام تيلامون الشبيه بالدجاجة ذي الشعر الأشقر المجعد، وكيف تغزل تيلامون دون تحفظ بحسناتي الجسدية، البشرة السمراء، قال، الشعر الصوفي الذي لنا نحن الكولخيسيين جميعا، والذي حببني إلى ياسون مباشرة، بالمناسبة إليه أيضا، ولكن ما قيمته أزاء ياسون، أصبح عاطفيا، كيف يصبح الرجال الأقوياء خفيفين، جمر عيني، قال، أنت تعرفينه يا أمي، كلما أراه يخطر لي كيف وضعت يدك على فمك حين وقف في الباب عندنا، وصحت كما لو كنت مذعورة: اوي! مدركة، إذا لم أخطيء، وكيف لمعت عيناك خلال ذلك، ،وكما لاحظت أنك لم تكوني قد أصبحت إمرأة عجوزا، وكان علي أن أفكر مرغمة في أبي المرتاب عكر المزاج. آه يا أمي. لم أعد إمرأة شابة، لكني لا زلت جامحة هذا ما يقوله الكورينثيون، فالمرأة جامحة بالنسبة لهم حين تتمسك برأيها. تبدو لي نساء الكورينثيين مثل حيوانات بيتية دجنت بعناية، إنهن يحدقن فيّ مثل ظاهرة غريبة، اجتذبنا نحن الثلاثة المسرورين في طرفنا من المائدة جميع النظرات، جميع النظرات الحاسدة والمستاءة لمجتمع البلاط ونظرات ياسون المسكين المتوسلة، على أية حال.

لماذا تبعث المرأة، الملكة، التي لم أكد أرها طيلة مكوثي في هذه المدينة كورينث. معزولة في شبكة من شائعات مرعبة، متخفية بشكل موثوق خلف عدم امكان الاقتراب منها، تمضي أيامها ولياليها في القسم الأبعد والأقدم من القصر، في حجرات سميكة الجدران، يقال أنها تشبه الكهوف المظلمة، أقرب إلى السجينة منها إلى الحاكمة، تخدمها

وتحرسها امرأتان بدائيتان غريبتان، يقال أنهما مخلصتان لها على طريقتهما، أعتقد أنها لا تعرف إسمي، ولم أشغل ذهني بالملكة التعيسة لبلد بقي وسيبقى دائما غريبا بالنسبة لي. يا له من ألم في رأسي يا أمي، شيء فيّ يقاوم، أن أهبط مرة أخرى إلى هذه الكهوف، أن أعود إلى العالم السفلي، إلى الآخرة حيث يموت الناس ويبعثون منذ القدم، حيث يخبز من تراب الموتى ما هو حي، أي إلى الأمهات، إلى إلهة الموت. ولكن ماذا يعني إلى الأمام وماهو إلى الوراء. الحمى ترتفع، كان علي أن أفعل. رأيت هذه المرأة إلى جانب كريون أول مرة يا أمي، بالنظرة الثانية تلك التي لاحظتِها لدي. قاومت حتى النهاية أن أتتلمذ على هذا الكاهن الشاب، فضلت المرض. الآن أتذكر، كان ذلك هو المرض، بينما كنت تريني خطوط كفي، لقد ارتكب الكاهن فيما بعد جريمة بشعة، لم يكن طبيعيا، عندها قلتِ، تمتلك الطفلة النظرة الثانية. أفكر أحيانا أنني فقدتها تقريبا، الخوف المرَضي للكورينثيين مما يدعونه قواي السحرية أفقدتني هذه القدرة. هكذا ذعرت حين رأيت الملكة ميروبا، تجلس دون نأمة قرب الملك كريون، بدت تكرهه وهو يخافها، هذا ما كان يستطيع أي واحد له عينان رؤيتَه. أعني شيئا آخر. أعني أن الهدوء ساد فجأة، أن ذلك الوميض الذي يتقدم الوجه الثاني ظهر أمام عينيّ، أنني كنت في القاعة الضخمة وحيدة مع هذه المرأة. هنا رأيتها، تعتّم هالتَها عتمةً كاملة تقريبا معاناةٌ لا تشفى، حتى أن الذعر أصابني وكان عليّ أن أتبعها حين نهضت إذ ما كادت وجبة الطعام تنتهي ودون كلمة توضيح، دون تحية للتجار الغرباء والمبعوثين على الأقل، خرجت متصلبة في ثوبها الاحتفالي المطرز

بالذهب وأرغمت الملك على أن يتجاوز عدم لياقتها بالسرعة في الكلام والضحك بصوت مرتفع. سعدت من قلبي لهزيمته. لا بد أنه أرغم هذه المرأة أن تعرض وجهها المخرب لكل هؤلاء الناس الفضوليين المغرورين، كما دفعني ياسون أن أمثل أمامهم ملهاة. كان هذا الآن كافيا. ذهبنا، كلانا لنفس السبب: الكرامة. لم أنس أبدا أنك قلت لي مرة، لو أنهم قتلوني سيكون عليهم أن يقتلوا كرامتي على انفراد. لقد بقي الأمر كذلك، ويجب أن يبقى، وسيكون مفيدا لياسوني المسكين لو أدرك هذا في الوقت المناسب.

تبعت المرأة. كان الممر الذي يقود إلى قاعة الاحتفال، كم مرة قطعته كزوجة لياسون، إبن أخت الملك وزوجة الضيفة المحترمة، إلى جانبه، في أوقات بدت لي سعيدة. كيف انخدعت، ولكن لا شيء يخدع أكثر من السعادة، ولا يوجد مكان يكدر حدة الإدراك مثل المكان بين حاشية الملك. اختفت ميروبا كما لو أن الأرض ابتلعتها، لا بد أن ثمة مخرجا، بحثت ووجدته مخفيا خلف قطع فراء، تناولت مشعلا من مقبضه وانسللت في الممر الذي أصبح بعد قليل منخفضا حتى أنني ما عدت أستطيع أن أمضي إلا منحنية، أم أنني حلمت، قوس السرداب الكابي لقصر الملك الرائع المضيء كصورته النقيضة بنيت مرة أخرى في الهاوية، في العتمة. الدرجات الحجرية، هبوطا طابقا فطابق، لا بد أن أكون قد حلمت بهذا، لكن البرد، لم أحلم بهذا بالتأكيد، لا زلت أرتعد، وحِدّة الحجارة التي شققت جلدي، وإلا فمن أين امتلأ ذراعاي بخدوش متيبسة، ثم في الدرك الأخير الأعمق، في ذلك السرداب، الذي يتجمع فيه الماء في هذا البلد الجاف، الدخول إلى متاهة الكهف،

درجتان ثم الدخول إلى مغارة، ومتابعة الزحف، حامية المشعل الذي أصبح يرتعش وحسب، لم أعد أفكر في ميروبا، التي سبقتني أو لم تفعل، لا أفكر في شيء أو أحد، علي المضي، كانت المغارة التي اتسع إليها الممر وحسب معروفة لدي في الحلم، أو من أين عرفت أن الطريق يتفرع هنا، من أين عرفت أن علي أن أتوقف يسارا، أن مشعلي سينطفيء قريبا. إنطفأ. ثم كان الممر ضيقا حتى تعين علي أن أزحف إلى الوراء لأخرج، وهكذا كان عليّ أن أتابع، عارفة أن ذلك يمكن أن يكون هلاكي، يضل أحدهم طريقه دائما في المغاور تحت الأرض ويهلك، هل أريد أن أهلك، لقد مر بي السؤال سريعا، لويت شفتي وتابعت الزحف. بعد ذلك لحسست من الجدران رطوبة متسربة، رطوبة لا طعم لها، ثم شعرت أن تركيب الهواء تغير، ووقف شعري حتى قبل أن أسمع الصوت. بعدها سمعت الصوت، دام أطول مما للمرء من نفس. أنين لا يكاد يسمع لكنه نافذ، كان يمكن أن يكون حيوانا أيضا، لكنه لم يكن حيوانا.

كانت المرأة. كانت ميروبا. أردت أن أعود، فقط أن أعود، ودفعت نفسي شيئا فشيئا إلى الأمام. أنقطع الصوت، تغلبت المطرقة في صدري على كل صوت آخر، إنها تفعل ذلك الآن أيضا، تطرق حتى الصدغين، وحين وجدت عيناى الطريق في الظلمة، رأيت الملكة تجلس في الضوء الخافت لمصباحها الزيتي، معتدلة بتصلب مستندة إلى الجدار الصخري، العيون ثابتة، مسمرة على نقطة في الجهة المقابلة. كنت مبتلة بالعرق حتى العظم في هذا البرد الجليدي. ونتنت رائحتي من الفزع، وهو ما لم يحدث لي من قبل، تحرك في شيء كنت قد

احتفظت به تحت القفل وكدت أنساه، شيء حي في مقبرة الموتى هذه. ما عاد الأمر لعبة. كم كان العرض كله على مائدة الملك باطلا، باطلا كان سلوكي أيضا. أعرف من وقت طويل: في الدولاب الكبير يؤدي من سُخِر منه دوره أيضا، حقا أنني لم أكد انساق ، هذا صحيح، ولكن ألم يدفعني حقا أثر من الإدمان على الإعجاب إلى الذهاب إلى حفلة الملك بدلا من أن أرفض، كما فعلت ميروفا التي قادتني حتى هذا المكان في نهاية العالم السفلي، حيث انتابني الاضطراب بعد الرعب، إذ زحف متقدما هنا في هدوء مريب شيء ما، كان علي أن أختفي منه، ولكن لم يكن هنا فجوة، لا شق في الصخرة. ما تسلل متقدما هنا، كان قد تعلم أن يتحرك بلا صوت، وحتى دون أن يحدث تيار هواء، بكلمة أدق، أفضل مما أستطيع أنا، حيث علمتِني هذا النوع من الحركة الذي يتكون من لا حركات بالغة الصغر في سن مبكرة جدا يا أمي، وعلمتني أيضا أن أنصهر مع السور - قلت لي إنني أحتاج إلى هذا في قصر أبي، قبل أن أفهم لماذا -، كذلك التنفس، الذي يحبس كل نفحة تخرج في العادة من جسم الإنسان، كان كل شيء لا يزال قائما، توليت من نفسي الأمر وتجنبت أن أرتعد بصوت مرتفع أمام الكائن، الذي زحف ظلا من ظل نحو المرأة، همس لها بكلمة، أخذ المصباح الموشك على الإنطفاء من يدها، وتبع المرأة التي خمنتها الآن ولأن المغارة ضاقت فقد كان عليهما أن تجثوا على ركبهما، حركة قلدتها دون إرادة. جثوت على ركبتي، من الضعف أو عرفانا بالجميل لإله جعلني أنجو ثانية. أو خوفا من الموت.

انتظرت حتى لم يعد يمكن سماع النساء، ثم بدأت أتقدم متلمسة

جدران المغارة. كان علي أن أعرف سر هذه الملكة. في ظلمة تامة وجدَتْ رؤوس أصابعي ما بحثت عنه، شروخا لم تضفها الطبيعة إلى الحجر، قشوط، أحدثت بأدوات، أعرفها من كولخيس، خطوط، استطعت أن أتابعها حتى شكلت رسما، أشكالا يضعها المرء في قبور الموتى ذوي المكانة العالية. تلاءم هذا مع شكوكي التي لم يكن بإمكاني في ذلك الوقت أن أعبر عنها. في الموضع الذي جئت فيه ميروبا هويت على أربع وزحفت إلى الجدار الذي حدقت فيه الملكة. تلمست بأصابع مقاومة الشرخ العميق في الحجر ووجدت ما كنت قد خفت منه، أطلقت صرخة تردد صداها في شعب المغارة. ثم عدت. لقد عرفت ما أردت معرفته، ووعدت نفسي أن أنساه بأسرع ما أمكن، لكنني لا أستطيع أن أفكر منذ ذلك الوقت في غير هذه الجمجمة الطفولية النحيفة، لوحي الكتف رقيقي العظام، هذا العمود الفقري القابل للكسر. آه.

لقد بنيت هذه المدينة على جريمة.

من يفشي هذا السر فهو هالك. لقد دفعتني الصدمة إلى العودة. بعيدا عن زاويتي الفم المتدليتين إزدراء على مائدة الملك، هذا واضح. ولكن إلى أين. لم يكن لديك أنت أيضا نصيحة لي يا أمي، هنا كنت أستطيع أن أسأل خطوط كفي كما أشاء، خطوط واضحة، حسنا، ،لكن ماذا يعني ذلك، اليوم وهنا. يريد المرض الذي رجني أن يمنحني فرصة للتنفس، أعرف المعنى الخفي للأمراض، إلا أنني أعرف كيف أستخدمه لشفاء الآخرين أفضل مما لنفسي. نصف طائعة أسلم نفسي للحمى التي ترتفع وتجرفني على موجة ساخنة، تحمل إلي صورا، نتفا من صور، وجوها.

ياسون. هل فضحت نفسي أمامه؟ كلا، رغم وجود لحظة، خاطفة، لحظة مغرية، لكني صمتٌ. أجل، نعم، صمتٌ. انتظرني ياسون، لم اتوقع هذا، لا أعرفه حتى الآن تماما، لقد فوت علي معرفته تماما، لأن الأمر لم يكن مهما لدي، ميل خطرٍ للراحة. بدلا من أعول على أن أتكهن بكل حركة من حركاته، خلدت إلى رفاه عدم الإكتراث، وإلا لأستطعت أن أعرف أن ذلك الخليط من النصر والإذلال اللذين شهدهما على مائدة الملك لا بد أن يكون قد صعّد لهفته، فلا يمكن أن يرويها سواي، ولا واحدة من الفتيات في القصر اللائي يلبين رغبته راغبات.

منهكة، متسخة جررت نفسي إلى البيت، إلى كوخ الطين، الذي يلتصق ظهره بالقصر مثل عش طير، وتصنع شجرة التين فوقه قوسا، أنظر إلى أوراقها المضيئة من مضجعي. حذرتني نظرة ليسا، لمحت لي حركة شفتيها بمن ينتظرني خلف ستارة الباب في الغرفة الجانبية، استطعت أن أغسل يدي ووجهي بسرعة وألقي علي قميصا نظيفا بدل الثوب الممزق المتسخ قبل أن يناديني ياسون. لا نخدع الناس بشيء أكثرمما نفعل حين نستأنف سلوكنا المعتاد، وهكذا كان علي أن أدفع رداء ياسون الذي تركه يسقط كما اعتاد أن يفعل دائما، جانبا وأظهر خلال ذلك قدمي تحت الثوب الطويل المنساب، بتلك الحركة المشجعة التي تدرك أن ياسون يحب أقدام النساء، ولكن ما من امرأة لها قدمان جميلتان مثلي، هذا ما قاله ثانية، وأردت أن أكسب الوقت فسألته ما إذا كان يتذكر متى أمسك قدمي بيديه أول مرة، ورد هو معتدا بنفسه: سؤال غبي. تعالي. هكذا يتحدث الرجل الآن إلي، لم يعد لدي فرق أن يخلط بيني وبين نسائه الأخريات. قلت، عليه أولا أن

يجيب. ثمة أمور لا ينساها المرء، قال ذلك وأعطاني مثلا على قدرته على النسيان.

كان ذلك في كولخيس، كنا نجلس أمام سياج الأوتاد ذاك الذي يفصل ساحة القصر الداخلية عن الخارجية، كان ذلك ليلا، القمر مكتمل، يتذكر هذا تماما. كنت ترتدين ثوبا مثل هذا، قال، لم أكن قد رأيت نسيجا ناعما بهذا الجمال، خلف السياج غنى الحراس أغانيكم الفظيعة التي تدق على عاطفة المرء، الآن أتذكر أيضا، أصابت الأغاني البطيئة الممطوطة لجنودنا الشبان قلبي أيضا، ليس للسبب نفسه. وعدتني، قال ياسون، أن تساعديني في الحصول على تلك الفروة الملعونة، التي كانت معنى وهدف رحلتنا، وأنا، حسنا، لأنك تريدين أن تعرفي، تناولت قدمك في يدي، تعالي الآن.

دهشت، من نفسي أيضا. إنه لا يزال قادرا على ايلامي يا أمي، ينبغي أن يتوقف هذا. كان ينبغي أن يكون واضحا لدي خلال ذلك أنه هو أيضا لا يستطيع أن يفكر إلا في سبب واحد لمساعدتي له ضد أبي: لا بد أن أكون قد جننت في حبه، هو ياسون. هكذا يرى جميعهم الأمر، والكورينثيون في كل الأحوال؛ فإن حب النساء لرجل بالنسبة لهم يبرر كل شيء. لكن كولخيسيينا الذين خرجوا معي أيضا، رأوا فيّ وفي ياسون زوجا منذ البدء، لا يدخل في أدمغتهم أنني لم أستطع أن أنام في بيت أبي مع رجل خدعه. خدعه بمساعدتي يا أمي، نعم، مؤكد، كانت تلك قسوة موقفي التي مزقتني، فلم أستطع أن أقوم بخطوة ليست خطأ، لا فعل لا يكشف شيئا ثمينا لدي. أعرف كيف كان على الكولخيسيين أن يسمونني بعد هروبي، كان أبي قد مهد لذلك: خائنة.

لا تزال الكلمة تحرقني. أحرقتني في تلك الليلة على "الأرغو"، واحدة من الليالي الأولى بعد هروبنا، كان اسطول الكولخيسسين الذي لاحقنا قد تركنا، فرفصت فوق لفة حبال على جدار ظهر السفينة، كان القمر هلالا، سماء مليئة بالنجوم، كنت أستطيع أن أسأل ياسون، هل تتذكر، سقطت النيازك في البحر كما لو أن يدا تذروها، كان البحر هادئا، ضرب الموج برفق على جدار السفينة، جذف البحارة الذين كانوا يقومون بنوبة التجذيف برتابة وهدوء، لم تهتز السفينة تقريبا، كانت ليلة معتدلة الطقس. كنت أستطيع أن أقول له، حين جئت يا ياسون، كنت ظلا داكنا في مواجهة السماء المرصعة بالنجوم، كانت ساعة سعد لك، قلتَ الشيء الصحيح بالنبرة الصحيحة، فعلتَ الشيء الصحيح بالطريقة الصحيحة، خففت ألمي الذي لم تعرفه والذي كنتُ قد اعتبرتُه لا يشفى. أمسكت قدمي بيديك كما لو كنت تريد تدفئتهما.

هراء، قال ياسون، صمتٌ. قال: لا نريد أن نتخاصم يا ميديا، ليس في هذه الليلة. تعالي. الصوت. الإشارة التي تتطابق مع شيء في داخلي مرة أخرى، مرة أخرى لم أترك له قدمي وحسب، تركت له كل بقعة من جسدي وهو يعرف كيف يجيب عليها كما لا يعرف رجل آخر غيره. بدا أنه عرف كيف يجيب. ياسون؟ صمت طويل. هذا ما كنت أعرفه. سيبحث الآن عن مذنبين. يحدث هذا، قال شاكيا، لأنك تخونينني. وإلا فأين اختفيت بتلك السرعة في حفلة الطعام، مع من تسليت. لم يكن عليّ أن أجيب، وقد أغضبه هذا. قال: سابقا، ما كان ذلك ليحدث لك. في الماضي منحتني قوة، كل القوة التي أحتاجها. ما قاله كان

صحيحا، نهضت، غطست وجهي وذراعي في الماء الذي أحضرته صباحا من النبع. سابقا، قلت لياسون، سابقا كنت تؤمن بي. وبنفسك.

لديك دائما رد، قال ياسون، تعرفين دائما كل شيء أفضل، متى تقرين أن وقتك قد مضى. الآن، قلت، وكنت نفسي مفاجأة، الآن أقر بذلك، ولكن ما نفعه لك. هنا ضغط رأسه بين يديه وأطلق زفرة لم أكن قد سمعتها منه من قبل. قال: فقط لا تظني أنه يسليني ألا تعرفي ماذا تفعلين. كان ذلك اعترافا لم أتوقعه منه. جلست إليه فوق المخدع، أبعدت يديه عن صدغيه، مسحت على جبينه، كتفيه، الانخفاضة المجروحة أعلى ترقوته، تعالي، قال متوسلا، اضطجعت إلى جانبه، أعرف جسده، أعرف رغبته في الإثارة، كان يستسلم خلف الأجفان المطبقة لخيالاته التي لم يشركني فيها. نعم، نعم، نعم يا ميديا، هو ذاك. نجح فيما رغبته له، ألقى بكل ثقله علي، دفن وجهه في صدري وبكى طويلا. لم أره أبدا يبكي من قبل. ثم نهض، غمر وجهه في ماء الحوض الموضوع فوق الصندوق، نفض رأسه مثل ثور تلقى ضربة على جبينه، وذهب، دون أن يلتفت إليّ ثانية. سيكون علي أن أدفع ثمن هذا. يجب أن تدفع المرأة الثمن دائما، حين ترى في كورنيث رجلا في ضعفه.

وفي الوطن؟ في كولخيس؟ هل أخدع نفسي حين أصر في داخلي أن الأمر كان هنا مختلفا؟ غريب، كيف صرت مؤخرا أتدرب على استدعاء ذكرى كولخيس، أملؤها بالألوان، كما لو كنت لا أريد أن أرى اختفاء كولخيس فيّ. أو كما لو أنني كنت أحتاجها، لا أعرف لأي

شيء.

ذهبت إلى ليسا، لم تكن قد نامت. سمعت صوت تنفس الأطفال في الجوار، من خلال الستارة. تمنيت أن تسألني ليسا أين كنت، لكنها لا تسأل أبدا. إنها الوحيدة بين جميع الأحياء التي لم أنفصل عنها يوما واحدا، التي ولدت في نفس اليوم، كانت أمها مرضعتي، وهي مرضعة أطفالي. هي التي رأت كل شيء، وفي الظاهر فهمت كل شيء، أم كان هذا أيضا وهما، حين اعتبرت الأمر فطرة لديها أن تكون قد أحست بكل خلجة من خلجاتي، أنها أحست بها، غالبا قبلي أنا نفسي وحتى حين أردت إنكارها أمام نفسي. ليسا، التي أسحبها أحيانا إلى جانبي في مضجعي، لأتحدث معها بإلفة، والتي أتمنى أحيانا أن تكون بعيدة عني في حافة العالم. لكن حافة العالم هي كولخيس. كولخيسنا على السفح الجنوبي للقوقاس المتوحش، خط جباله الخشن حفر في كل منا، نعرف هذا عن بعضنا، لا نتحدث عن ذلك أبدا، الحديث يصعد الحنين إلى ما لا يطاق. ولكني كنت أعرف أنني لن أتوقف أبدا عن الحنين إلى كولخيس، ولكن ما معنى أعرف، هذا الألم المحرق دائما، الذي لا يخف، لا يمكن التكهن به، نقرؤه نحن الكولخيسيين في عيون بعضنا حين نلتقي لننشد أغانينا ولنروي للشبان الناشئين قصص آلهتنا وقبائلنا التي لا يريد بعضهم سماعها، لأنهم يتمنون أن يعتبروا كورينثيين أصليين. أنا أيضا أتجنب أحيانا الذهاب إلى هذه اللقاءات، ويبدو لي أنهم يغفلون دعوتي إليها أكثر فأكثر. آه، أحبائي الكولخيسيون، هم أيضا يعرفون كيف يؤلمونني. وأصبحت ليسا مؤخرا تعرف أيضا.

لقد بقيت ساهرة حقا، كما فعلت دائما حين كان يمكن أن أحتاج إليها، لكنها خلاف المعتاد امتنعت عن الابتسامة المتواطئة. لن أستجدي هذا، تظاهرت أنني لم ألحظ شيئا، وبدأت في منتصف الليل أسألها وأسأل نفسي عما إذا كان الرجال في كولخيس مختلفين عنهم في كورينث، بجفاف دخلت اللعبة، حسب ما تتذكر كان الرجال في كولخيس يطلقون الحرية لعواطفهم، قالت، فوالدها مثلا بكى علنا وبمرارة حين مات أخوها في حادث، عول وصرخ، بينما لا يرى المرء في كورينث رجلا يبكي عند دفن. على النساء أن يقمن بذلك عن الرجال. ثم صمتت. عرفت فيما كانت تفكر. لم أر ثانية أبدا رجلا يبكي هكذا مثل ذلك الشاب الكولخيسي الذي أحبته ليسا والذي كانت قد أحبته لكنها تركته لتتبعني على الـ "أرغو" وفي رحلة إلى المجهول. أرينا، إبنتها، ولدتها في الطريق، بعد ذلك لم يوجد رجل في حياة ليسا، ولم أعد أستطيع إلا أن أسأل عن الثمن الذي دفعته ليسا والكولخيسيون الآخرون، الذي دفعناه جميعا، حين لم أعد أريد العيش في كولخيس، وأن يكونوا قد تبعوني وقد أعمتهم سمعتي التي تمتعت بها بينهم. عليّ أن أرى الأمر اليوم على هذا النحو.

ياسون؟ آه ياسون. تركتهم على رأيهم، بأنه الرجل الذي سأتبعه حتى آخر الدنيا، ولا أستطيع أن ألومهم إذ اعتبروا انفصالنا إساءة شخصية كبيرة إليهم. أسوأ من ذاك: كدليل على لا جدوى هروبنا بينما تلمست أنا، هكذا فكرت وأنا في مهجع ليسا، هذا الدليل اليوم بيدي، هيكلا عظميا لطفل، مخفيا عن العالم في مغارة. هنا وضعت ليسا يديها على رقبتي. لا زالت الإشارات موجودة، لكنها لم تعد تحمل

نفس المعنى. نستطيع أن نطيب خاطر بعضنا. لكننا لا نستطيع أن نصلح شيئا. لم يكن ذلك هو الهدف يا أمي، بدأت أفهم.

ما الذي أردت أن أحسن عمله، أو أصلحه، حين لم أجد ما أفعله أفضل من الذهاب مع ياسون. حين أسررت لك يا أمي ثم لليسا بما أنويه، أصغى كلاكما إلي دون كلام، لم تسألاني عن الأسباب، أوضحت ليسا في الآخر أنها ستأتي معي. بعد ذلك بسنوات أردت أن أعرف منها ما حدث في تلك الأيام والليالي في كولخيس، فقد كانت ليسا هي التي جمعت تلك الفرقة الصغيرة من الكولخيسيين التي أرادت الانضمام إلينا. لم يسمح لها أن تخطيء في واحد منهم، كان يجب الاعتماد على كل واحد، كانت كلمة غير مقصودة أو فاضحة حول خطتنا ستؤدي إلى كارثة. كانت تعرف أبناء بلدنا بالضبط، لقد راقبت طويلا وعرفت من الذي يجد الأوضاع لا تطاق مثلي. لم يخرجوا بسببي، هذا ما أكدته لي ليسا تكرارا، حين بدأ كولخيسيونا شاعرين بالخيبة من البلدان التي سقتُهم، قدتهم إليها، أن يلقوا على الذنب في فقدان وطنهم الذي تألق أمامهم لاحقا في بريق لا تشوبه شائبة. لكم أفهم. كم أنا غاضبة عليهم.

بعد وقت قصير انتشرت حول ظروف بدء رحلتنا من كولخيس قصص مختلفة وحتى متناقضة. مؤكد أنني دخلت مهجع ليسا، هززتها حتى استيقظت: تعالي يا ليسا، هلا أتيت؟ وأن ليسا نهضت، تناولت الرزمة التي كانت قد شدت، وتسللت معي من القصر هابطتين إلى الساحل ، حيث رست الـ "أرغو" وسفينتان أخريان تابعتان للاسطول الكولخيسي في بحر هاديء وظلمة تكاد تكون كاملة ، سفن

الهرب، التي حُملتْ إليها النساء والأطفال من قبل الرجال في الماء غير العميق. لم نكد نبحر حتى بدأ بعض الرجال يبالغون حول ارتفاع الماء، ويتحدثون عن رحلة عظيمة الخطر، عن كثبان وبحر هائج، عن تعقلهم وشجاعتهم التي يعود إليهما الفضل في أن جميع النساء والأطفال وصلوا إلى ظهر السفينة سالمين. ستفقد أساطيرهم معناها إذا ما ساءت حالنا أكثر، ولن ينفع أن توضع الحقائق أمامهم. فيما إذا كان ثمة ما يشبه الحقائق، بعد كل تلك السنوات. إذا لم يكونوا قد أفرغوا بسبب الحنين والإذلال والخيبة والفقر، وأصبحوا قشرة رقيقة قابلة للكسر يمكن أن تدمر من قبل كل من يريد ذلك بالفعل. من سيريد ذلك. بريسبون؟

بريسبون ، بحبه لذاته الذي لا يلجم، يمكن أن يكونه. كان الوحيد بين المهاجرين الذي لم يبلغ بنفسه ليسا، إنها تلوم نفسها حتى اليوم على أنها سكتت عن ذلك. انتهز الفرصة ليدير لكولخيس ظهره ويستعرض موهبته العارمة في عرض نفسه في مكان آخر، في كورينث البراقة مثلا، حيث جعل نفسه شخصا لا يستغنى عنه في ألعاب المعبد الكبرى، فهو يعرف أن يشغل محركها المعقد كما لا يعرفه شخص آخر، ويلقي عليها من خلال العرض المستلهم للأدوار الكبيرة ألقا يشكره عليه الملك كريون. لم يحظ كولخيسي آخر بمثل التكريم الذي حظي به، كيف بذل بريسبون ابن خادمة وضابط من حراس القصر في كولخيس، الذي لم يأنف في البدء من رفع القمامة من ساحة الاحتفال بعد الاحتفالات الكبيرة، جهده لدرجة لفتت الانتباه إليه. كيف عانى من الإذلال. كيف يكره جميع الذين رأوه في عاره وسخروا

من الخلوع التي عرض نفسه لها ليرتقي. كيف يكرهني لأنني لا أقدّر قيمته. لا شيء يبقى دون تبعات يا أمي. كنتِ على حق في هذا.

هل كانت ليسا التي أخبرتك بموعد هروبنا؟ في الظاهر أنت نفسك حزرت، لم يراقب أحد بانتباه أكبر مما فعلت الأحداث التي تبعها ظهور ذلك الأجنبي في كولخيس.

كان كل شيء في ذلك لا بأس به. لم يكن كولخيسيونا غير لطيفين، ياسون بفراء الفهد ورهطه المتوحش قليلا من البحارة، الذين لم يكونوا حقا غلاظا، وإنما أقرب إلى قلة اللباقة، لكنهم مستعدون لمساعدة الغير، إذا ما احتاج الأمر، وفضوليون. وكان في الأمر شيء مما يرضي الغرور في الواقع أن يكون الهدف من رحلتهم البحرية المحفوفة بالمخاطر كولخيسنا بالذات، بلد مثل البلدان الأخرى على ساحل البحر الأسود. على أية حال لم يكن ثمة سبب ألا يعامل هؤلاء البحارة الذين رسوا في خليج نهرنا فاسيس بشكل لائق كضيوف. فوق ذلك استقبل ايتيس، الملك، الأب، ياسون وتيلامون بعد وصولهم مباشرة ودعا البحارة الخمسين جميعا في المساء التالي إلى القصر، إلى حفلة طعام، ذبح من أجلها عدد كبير من الخراف وانتهت بانشراح وتآخ.

بالطبع تنبأ الكثيرون فيما بعد حتى في ذلك الوقت حلول كارثة، ،لكن ما الذي يمكن أن يكون مريبا في وليمة تجاوز ضجيجها مختلطا بأصوات أبواق قرون الأكباش القصر، حيث طاب النبيذ الذي ربيناه على سفوح الجنوب للضيوف.

كلا. كنتُ الوحيدة التي توجست شرا، لأنني كنت مطلعة على ريبة

أبي بهؤلاء الضيوف. الوحيدة عداك يا أمي. لم تكوني بحاجة إلى سبب جديد للتوجس. كنت تعرفين الملك. كان على أن أعاني في داخلي مع أبيك:لن تشي بي يا ابنتي. عرفت أن ياسون أراد الفروة. عرفت أن الملك لم يرد أن يعطيَه اياه. لم لا، لم أطرح هذا السؤال. كان علي أن أساعده أن يجعل هذا الرجل غير مؤذ، بأي ثمن رأيت أي ثمن مرتفع حدده، مرتفع لنا جميعا. لم يبق أمامي إلا الخيانة.

ألم يبق أمامي غير ذلك؟ كيف تُبهِت السنوات الأسباب التي كنت متأكدة منها. كيف استدعيت المرة بعد الأخرى تسلسل الأحداث التي ثبتها في ذاكرتي كسد واق ضد اليأس الذي يغرق الآن، متأخرا هكذا هذا السد. كلمة واحدة كسرت مقاومتهم: لا جدوى. منذ أن لمست عظيمات هذا الطفل تتذكر يداي تلك العظيمات الأخرى التي رميتُ بها من سفينة الهرب إلى الملك الذي لاحقنا وأنا أبكي بصوت عال، لا زلت أتذكر هذا. عندها تركنا. منذ ذلك اليوم خافني البحارة. ياسون أيضا، الذي رأيته بعينين أخريين منذ أن عرفته كقائد للسفينة. لقد مضى عبر كولخيس مثل أعمى، لم يفهم شيئا، سلم نفسه لي تماما، لكنه حين دخل سفينته وهو يضع الفروة حول كتفه أصبح شخصا آخر. سقط عنه كل ما هو فج ، اصبح صلبا، لم يكن في حرصه على مصير فريقه ما هو غير رجولي، سلوكه الحذر عند صعود الكولخيسيين إلى السفينة أثر في. هنا سمعت للمرة الأولى كلمة مستجيرين. كنا بالنسبة للبحارة مستجيرين، لسعني ذلك. ثم تخليت بعدئذ عن بعض الحساسية.

لكن ذلك غير مهم الآن. أعتقد أنه ضعفي يا أمي، إنه ضعف هذه

اللحظة أن أستسلم اليوم لهذه الأفكار. حين وقفت على الساحل لتوديعي، أفهمتني أنك تؤيدين ما فعلت. لم يكن أمامي خيار. لم يكن ثمة الكثير للحديث. لا تكوني مثلي، قلت لي وسحبتني إليك بقوة لم ألمسها فيك منذ وقت طويل، إلتفتُ ومضيتِ صاعدة منحدر الساحل باتجاه القصر الذي كان ينام فيه الملك وخدامه نوما عميقا وثابتا، بعد شراب الوداع الذي خلطتُه لهم فشربوه نخب ياسون الذي سيفارقهم. كان عليه أن يبقى يقظا وصاحيا، ليجد الطريق ثانية إلى بستان اريس الذي أريته اياه في النهار، ليتسلل عن الحراس الذين كفلت أن يناموا هم أيضا، وليقوم أخيرا بمساعدتي بتلك الفعلة التي جاء من أجلها إلى كولخيس في الطرف الشرقي من عالمه: أن ينزل فروة الكبش من شجرة البلوط لإله الحرب، التي أتى بها عمه فريكسوس قبل سنوات طويلة في طريق هروبه والتي طالب بها ذووه الآن. نوعا من اختبار الشجاعة، هكذا رأيت الأمر يومذاك، غير مطلعة على التاريخ المعقد لعائلة ياسون المسكين. ماذا كانت بالنسبة لي هذه الفروة، التي حين تفحصوها بدقة فيما بعد والتي سماها الرجال على الأرغو "الفروة الذهبية": كانت هذه الفروة مثل فروات الكثير من الكباش في كولخيس، قد استخدمت لاستخراج الذهب، إذ وضعها المرء في الربيع في أحد الشلالات الساقطة إلى الوادي، ليلتصق بها غبار الذهب الذي جرفه الماء من داخل الجبل. سألني البحارة بدقة عن هذه الطريقة التي بدت لي عادية تماما، لكنها أثارت انفعالهم بشدة: أوجد ذهب في كولخيس؟ ذهب حقيقي؟ لماذا لم أرو لهم هذا قبل الآن؟ كم كان يمكن أن تكون الزيادة في محصول مشروعهم. فهمتهم هنا في كورينث

فقط. كورينث مسكونة بالطمع إلى الذهب. هل تستطيعين أن تتصوري يا أمي أنهم لا يصنعون أدوات العبادة والحلي وحدها من الذهب وإنما أشياء الاستعمال العادية، الصحون، الطاسات، المزهريات، وحتى التماثيل، وأن يبيع المرء هذه الأشياء بأسعار مرتفعة في المناطق المحيطة ببحرهم المتوسط، لكنهم أنفسهم مستعدون أن يبادلوا الحبوب والأبقار والخيول والأسلحة بالذهب الخام، وسبائك الذهب. وأكثر ما أثار استغرابنا أن يقيس المرء قيمة مواطن من كورينث حسب كمية الذهب التي يملكها. وتحسب طبقا لها العطايا التي عليه أن يقدمها للقصر. جيوش كاملة من الموظفين ينشغلون بهذه الحسابات، كورينث فخورة بهؤلاء الاخصائيين، وأخاماس، الفلكي الأعلى والمستشار الأول للملك، الذي أبديت له مرة استغرابي حول هذا العدد الكبير من الكتبة والمحاسبين غير المفيدين ولكنهم متغطرسون، أوضح لي فائدتهم العظيمة في تقسيم الكورينثيين إلى فئات مختلفة، هي وحدها التي تجعل البلد قابلا للحكم. ولكن لماذا الذهب بالذات، سألت. كان ينبغي أن تعرفي، قال أخاماس، إنها رغباتنا وشهواتنا التي تمنح مادةً قيمة وتجعل أخرى عديمة القيمة. كان والد ملكنا كريون رجلا ذكيا. بمنع واحد جعل الذهب من أكثر الأشياء موضعا للرغبة في كورينث: بقانون يقضي بعدم السماح للكورينثيين الذين لا تبلغ عطاياهم للقصر ارتفاعا معينا باستخدام الحلي الذهبية. قلت له: إنك أيضا رجل ذكي يا أخاماس. لا يوجد في كولخيس مثل ذكائك . لأنه لا يحتاج إليه لديكم، قال بتلك الإبتسامة ثانية التي جرحتني في البدء. وكان على حق.

ولكن أين تُراني أتيه. يجب أن أنهض أخيرا. إذا صح ما رأيت يا أمي فإن أشعة الشمس تسقط عمودية على شجرة التين، هل هذا ممكن، أأكون قد قضيت الصباح مضطجعة نائمة، هذا ما لم يحدث لي من قبل. إنه بسبب المغارة، لا أستطيع أن أنهض، كان لا بد لأحد أن يساعدني، كان على ليسا أن تأتي، الطفلان. هو ذا، ثمة من يتلمس جبيني، يقول صوت: أنت مريضة يا ميديا.

أهذه أنت يا ليسا.

عظيم هو حافز الرجال،
أن يبقوا في الذاكرة
ويكسبوا اسما خالدا إلى الأبد

افلاطون، المحاورات

ياسون

ستكون المرأة وبالاً علي. كما لو أنني لم أعرف. ستكون ميديا وبالا علي، قلت لأخاماس طائعا. لم يخالفني الرأي، لكنه لم يؤيدني أيضا كما هي عادته اللعينة. دائما هذه الابتسامة المهذبة، دائما هذا التعبير في العينين الذي يحمل معنى مُضمَرا، دائما اسلوب الحديث المرن هذا، الذي يريد به أن يجعلني أصدق أنه لم يعد ثمة من يستطيع أن يؤذيني بسهولة. ماذا يعني هذا ثانية. يسمع بوضوح العشب ينمو، السيد الفلكي الأعلى. هل تريد أن تسخر مني يا أخاماس، قلت له مباغتا، هنا هز رأسه مهموما وحسب، رأسه الكبير ذا الخدين المجوفين فوق جسده الغريب المائل الذي لا يناسب فيه مفصلٌ مفصلا آخر. أي جهد يبذله ليبدو وجيها، هكذا عبرت ميديا حين قابلته أول مرة، تطورت بينهما علاقة سيئة من البداية، لم ترد ببساطة أن تهادنه. قلبي ينبؤني بالفاجعة.

هو الآن عدوها. لا أدري لماذا، لا بد أن شيئا ما قد فاتني، كما تفوتني أشياء كثيرة في متاهة بيت الملك هذا، الذي لا أستطيع أن اتطبع بعاداته. ما أكثر البلدان، ما أكثر المدن التي عرجت عليها سفينتي "آرغو"، ولكم تطلعت في وجوه ناس مختلفين كثيرين جدا. والآن بعد أن رست سفينتي وتفرق أصحابي، لم يبق لي سوى هذه البقعة، يجب أن أرتب أمري هنا، ميديا أيضا يجب أن ترتب أمرها هنا، اللعنة. كما لو كان فهم ذلك صعبا. لا بد أن تكون قد استفزت هذا الأخاماس، وإلا لما أحيا الآن هذه القصة القديمة والتي لم تثبت صحتها فوق ذلك

وأشاعها. أن أقف في مجلس الشيوخ كآخر غبي، وأوضح موقفي من اتهام ميديا يومذاك بأنها قتلت أخاها. كنت كمن تلقى ضربة على رأسه، استطعت أن أرفع يدي فقط وأوكد، أن ذلك لا يمكن. أي أنني مقتنع أن اولئك الذين اتهموها يكذبون؟

أين وقعت، في أي ورطة أوقعتني. مقتنع، مقتنع. بأي شيء يستطيع الواحد أن يكون مقتنعا بشأن هاته النساء. حرك الشيوخ رؤوسهم مؤيدين. لستُ في الظاهر من سيدفع الحساب. ولكن هي. وهي زوجتي.

بأي شيء يستطيع الواحد منا أن يكون مقتنعا، حين تكون هاته النساء متفقات على أن يتركن الواحد يتخبط في الظلام. وهذا ما ينبغي أخذه حرفيا. كانت الظلمة حالكة حين جاءت ميديا بهذه الحزمة من الفراء فوق ذراعها إلى الموقع الذي رسونا فيه، لم يكن معها أكثر من ذلك، هدهدت الحزمة مثل مولود تقريبا. كنت قد شككت حتى الأخير في قدومها. فقد رأيتها وهي تمضي عبر مدينتها برأس مرفوع. كيف تجمع الناس حولها، حيوها. كيف تحدثت معهم. كانت تعرف كل واحد منهم، حملتها غمرة من التوقع.

رأيتها تشرب من البئر في ساحة قصرها، بالمناسبة شيء مدهش عجيب. ماء وحليب ونبيذ وزيت كانت تجري من أنابيبه الأربعة التي وجهت تماما باتجاهات السماء. رأيتها أولا منحنية فوق البئر، تغرف الماء بيديها، وتشربه في جرعة واحدة. جئت مع تيلامون الأهلب، الذي قد لا يكون الأذكى، لكنه واحد من أكثر بحارتي مرحا واتزانا، وهو تابع مخلص لي. لذلك بقي هنا قربي. كان الوقت عصرا، حرارة محرقة

أنهكتنا نحن المعتادين على نسيم البحر المنعش، ونحن منذ ساعات فقط في هذا البلد الذي وجهنا له منذ أسابيع طويلة كل انتباهنا ولهفتنا. كم كلفنا أن نشق طريقنا إلى هنا في حافة العالم، فقدنا عددا من رفاقنا، كم مرة أصبح الدافع للعودة طاغيا، إلا أن الخجل وحده، من بعضنا ومن اولئك الذين كانوا سيستقبلوننا في الوطن شامتين أبقانا. وهذا البلد الرائع كولخيس الذي تقرر مصيرنا فيه، هكذا بدا لنا.

يعرف المرء أن التوتر الأقصى يعقبه وهن غالبا. هكذا أعقب التهليل الذي رافقنا به الدخول أخيرا إلى نهرهم فاسيس، الرسو الموفق في هذا الخليج الطبيعي، تغير في المزاج. أيكون هذا هو البلد المنشود. النهر، الشواطىء، المنطقة المحيطة بها، منطقة هضاب بغابات ذات أشجار مختلفة، بدت لنا عادية تماما، كنا قد رأينا في الطريق أجمل منها. لقد تحفظ كل واحد حقا من قول كلمة عنها، لكني قرأت الخيبة في عيون رجالي. ولم يكن الذين بقوا على ظهر الأرغو ليستطيعوا في ذلك أن يعرفوا ما كان ينتظرنا حين مضينا، أنا وتيلامون، لنبحث عن قصر الملك اييتس ونبلغ هذا الملك غير المعروف بمطالبنا.

كان ذيوع صيتي مؤكدا لي في اللحظة التي كنت فيها أول من وضع قدمه على هذا الساحل الأكثر غربة في أقصى الشرق، وقد منحني هذا القوة. نحن الذين صادفنا بلدا بربريا كنا نتوقع عادات بربرية وقد حصّنا أنفسنا داخليا بالدعاء لآلهتنا. ولكني أشعر حتى اليوم بالفزع الذي أصابني حين عبرنا دغل صفصاف واطيء ووجدنا أنفسنا في

بستان ذي أشجار مزروعة بانتظام، تدلت منها أبشع أنواع الثمار. أكياس من فراء الأبقار والخراف والماعز أخفت محتوى، برز من المواضع المزقة: عظام بشرية، مومياءات بشرية علقت هنا وترنحت في الريح الخفيفة، بشاعة لكل إنسان متحضر يحتفظ بأمواته في مكان مقفل تحت التراب أو في قبور صخرية. نفذ الرعب إلى أعضائنا. كان علينا أن نتابع السير.

ثم كانت المرأة التي استقبلتنا في ساحة الملك اييتس المحاطة بشجيرات العنب الصورة المضادة لثمار الموتى المرعبة، قد يكون صحيحا أن ذلك زاد تأثيرها علينا، كيف انحنت في الثوب الأحمر والأبيض المدرج، الذي يلبسنه جميعا، يلتصق به القسم الأعلى الأسود، تلقت بيديها اللتين جعلتهما على شكل وعاء الماء من الانبوب وشربته. كيف لاحظتنا وهي تعتدل، فنفضت يديها واتجهت إلينا دون تحفظ بخطوات سريعة قوية، كانت نحيفة لكنها ذات قوام متميز وأظهرت على هذا النحو فضائل مظهرها، حتى أن تيلامون لم يضبط نفسه، كما هو دائما، صفر من بين أسنانه وهمس لي: هذ ا ما كان سيناسبك. لم يفته أن الفتيات ذوات البشرة السمراء والشعر الداكن يرقن لي. ولكن هذه هنا، لم يكن تيلامون المسكين قادرا على أن يدرك أن هذه كانت بالتأكيد مختلفة بشكل ما. توتر لم أعرفه من قبل في جميع أعضائي، شعور رائع تماما، لقد سحرتني، ملكت حواسي، بالفعل، فعلت ذلك. وتريد أن تتابع هذا، أخاماس على حق هنا. كان علي أن أحترز من الوقوع دائما في فخ ألاعيب فنها، فهي ستحدثني بالطبع عن موت أخيها المسكين، واحدة من قصصها القابلة

للتصديق تماما، ما دامت تمسك بالواحد بنظرتها، ولكن علي الآن أن أتحصن كي لا أقع في الفخ ثانية.

كان غريبا حقا كيف حيتنا بيد مرفوعة بإشارة السلام، إشارة لا يستخدمها إلا الملك ومبعوثوه، كيف ذكرت إسمها دون تحفظ، ميديا، إبنة الملك اييتس والكاهنة الأعلى لهيكاتا، كيف تلهفت على معرفة أسمائنا وما نريد كما لو كان من حقها ذلك، وأنا وقد بوغت أفضيت لها بما لا ينبغي أن يعرفه سوى الملك. وكيف خفق قلبي ويا للغرابة إذ أصبح اسمي غريبا علي حين نطقت به، اليوم تحضرني كل هذه الأشياء القديمة التي لم أفكر فيها زمنا طويلا. كنا نستلقي على "الأرغو". خاطبتني ميديا باسمي كما لو كانت تراني أول مرة، تركتني على بعد ذراع منها وتفحصتني بطريقة شعرت أنها غير لائقة أكثر مما هي ساحرة، وقالت بجدية كاملة، بطريقة احتفالية تقريبا كما لو كانت قد اتخذت قرارا للتو: ياسون، إني آكل قلبك.

هكذا كانت، هذا السلوك. لم أرو هذا لأحد، لا يود المرء أن يجعل من نفسه اضحوكة. ولكن في تلك الليلة، تحت هذه السماء المرصعة بالنجوم وجدتها، كيف أسمي ذلك، متسلطة. كلمة كهذه أيضا، سيلوي أخاماس فمه. كما لو أنه لم يدفع هو أيضا أتاوته لها. آه، هو. لا أدري إلى أي حد مضى هذا، أجابت على مثل هذه الأسئلة التي هي في الآخر من حقي، برفع حاجبيها دائما، لكني لست أعمى، لقد التقطتُ نظرات منه إليها، إعجاب، يمكن قول ذلك، أم أن ذلك دهشة، ولكن لدى رجل مثل أخاماس، الذي لا يترك الدهشة تلاحظ عليه مهما حدث. ربما تكون حواسي قد أصبحت أكثر حساسية لمثل هذه

الأشياء بسبب الغيرة. بالمناسبة، تغيرت العلاقة بين ميديا وأخاماس منذ أن درأت المجاعة التي هددت كورينث سنتين بعد الجفاف الكبير. ليس من خلال السحر. هذا ما يدعيه الكورينثيون. ولكن نشرت معرفتها عن النباتات البرية الصالحة للأكل التي يبدو أنها لا تنفد، وعلّمت، كلا أرغمت الكورينثيين على أكل لحم الخيل. وأرغمت كولخيسييها أيضا وأرغمتنا نحن البحارة القليلين المتبقين على ذلك. بدأت بي. أعدت لي في عز فترة الجوع وجبة طعام رائعة وتركتني آكل، معها عينا بعين، أكدت شكوكي، نظرت دون انفعال كيف غصصت باللقمة، وحملتني بعد ذلك، كيف، لم أعد أنا نفسي أدري، أن أعترف أمام جميع الشعب بأني آكل لحم الخيل. لم تصبني عقوبة الآلهة، ذبح الشعب الخيول، أكل، ونجا ولم ينس ذلك لميديا. منذ ذلك الوقت تعتبر إمرأة شريرة، فالناس، قال أخاماس، يفضلون أن يعتبروا أنفسهم مسحورين، على أن يعتقدوا أنهم أكلوا نباتات برية والتهموا أحشاء حيوانات لا تمس بسبب جوع عادي. تقول ميديا، من يرغم الناس على مس مقدساتهم يجعلهم أعداء له. إنهم لا يحتملون هذا. قالت: وهكذا فإنهم ينكرونني. لكنهم لم يبنوا حتى الآن مخزنا جديدا.

كانت هذه العلاقات الخفية الصعبة أعلى مني. على كل حال: لن يدافع أخاماس عن ميديا ضد اتهامها بأنها قتلت أخاها. منذ قصة الجوع والخيل هذه يعتبرها تهديدا له. إنه يثير الشك دون أن يتحدث عنه مباشرة وهو يملك الوسائل.

وهي لا تُسهّل للمرء الأمر. يكاد المرء يفكر أنها تلعب بالنار. كيف تمشي. متحدية، هذه هي الكلمة. أكثر الكولخيسيات يمشين هكذا.

هذا يعجبني، لكن يستطيع المرء أن يفهم نساء الكورينثيين أيضا حين يشكين: كيف يحق لغرباء، مستجيرين في مدينتهن أن يمشين باعتداد أكبر بالنفس مما يفعلن هن. حدثت مماحكات، كان علي أن أتوسط، ردتني ميديا خائبا.

ولكن إلى أين تسوقني. الفروة؟ سألتني ميديا مندهشة. ولكن لماذا الفروة. كنا نقف عندها قرب البئر، كانت قد ناولتنا أنا وتيلامون أول كأس للنبيذ، وكنت قد رأيت أول مرة الوميض في عينيها رماديتي الخضرة، ظاهرة فريدة. يمكن أن يصبح المرء مدمنا عليه. وهي، حين تلاحظ تأثيرها، تستطيع أن تبتسم على طريقتها المتفوقة وتغض بصرها، تطلق سراح الأسير، ويبدو أنه لا يهمها حتى اليوم أن بعض هؤلاء المطلق سراحهم يأخذ عليها تفوقها بشدة. الفروة. كان علي أن أشرح لها في هذه اللحظة لماذا أوعزتُ ببناء سفينة قوية بخمسين مجذافا وصارية مرتفعة وعينت فيها أكرم أبناء بلادي وأبحرت بها عبر بحرنا المتوسط الذي نعرفه في مضيق عظيم الخطر إلى البحر الأسود المتوحش الخطر، إلى هنا في كولخيس الكئيبة، حيث يعلق الموتى على الأشجار، من أجل أن أحصل على فروة كبش بسيطة، كان عمي فريكسوس في هروبه قد قدمها قبل أعوام هنا كهدية من ضيف، اعترفت بهذا دون تحفظ. حسنا. ولكن ما الذي جعلني أطالب باستعادة هدية. كان واضحا لدي تماما طيلة الرحلة لأي شيء نحتاج فجأة بإلحاح هذه الفروة في جولكوس، كنا قد كرسنا في الآخر كل قوتنا، بل حياتنا من أجلها، والآن، بدأت أتلعثم أمام هذه المرأة، وتقلصت جميع الأسباب السامية والمرغِمة إلى الحقيقة الضئيلة بأن

خلافتي لعرش جولكوس مرتبطة بامتلاك هذه الفروة. بذلت جهدها باحثة لتفهم. هكذا إذن، الأمر يتعلق بخلاف على العرش بين عائلتين ملكيتين. نعم، كلا. ليس فقط. تدخل تيلامون بعدم حذاقة. بيلياس، عمي، الذي يمتلك العرش في جولكوس قد حلم. هنيئا لبيلياس، قالت ميديا، إنها تستطيع أن تكون يقظة بشكل غير مريح. اعتقدت أن عمي بيلياس أراد أن يبعدني عن البلاد بهذه المهمة الخطرة. ولكن كلا، كلا. على أية حال ليس لهذا فقط. الآن توقف الأمر على إفهام هذه المرأة بأن الفروة لم تكن ذريعة فقط، وإنما كانت شيئا مقدسا لا نستطيع الاستغناء عنه. كيف، أرادت أن تعرف. والآن علينا أن نصف الهالة لشيء مقدس بكلمات عجاف. تخبطنا حتى أطلقها تيلامون، الفروة هي رمز للخصوبة لدى الرجال، فعلقت على ذلك بجفاف، وإذن فإن الخصوبة لدى الرجال في جولكوس ليست على أفضل حال. لا أحب تذكر التأكيدات التي تخبط فيها تيلامون المسكين والتي قطعتها أخيرا بحركة يد مسترخية.

كانت متعالية، قالت، أيا كان ما تعنيه هذه الفروة بالنسبة لنا، فإنها لا تعتقد أن أباها، الملك، سيسلمها بسهولة. ملكية لم تعط قيمة كبيرة حتى الآن تصبح بالنسبة للمرء فجأة ثمينة، حين يتلهف عليها آخر، أليس كذلك. وهكذا سرنا في حيرة خلفها متباطئين إلى قصر أبيها، الذي كان بالمناسبة بأكمله من الخشب، زين بحفر فني، مؤكد، ولكن لن يسمي المرء هذا قصرا لدينا. رغم ذلك لم نفوت الإبداء عن إعجابنا كما ينبغي لضيف، وكان علي أن أجاهد لأهدئ بعض الشيء سرب الأفكار غير السارة التي خلقت البلبلة في رأسي. هكذا هو الحال

معها، حتى اليوم. لا شيء جعل الملك كريون وحاشيته تتألب ضدها مثل ثبات الجأش الذي تلقت به منذ وقت قصير خبر طردها من قصر كورينث، بدعوة أن مستحضراتها ومشروباتها أضرت بأم الملك الطاعنة في السن، كما شهد طبيب عائلة الملك، ولكن لم يصدق ذلك أحد على أية حال. الآن يطرحون ذرائع أخرى. لقد أجهدت ذهني لأعرف لماذا أريد إزاحتها من الطريق. إدعى لويكون، لم يعد القصر يحتمل طبعها الساخر المعتد بنفسه، ولكن هل يكفي هذا؟ على أية حال رزمت وقد شعرت بالتخفف تقريبا أشياءها، لم تكن كثيرة، وقفتُ وراقبتها، لم أقل شيئا، لم يكن لدي ما أقوله، أعدّت ليسا في الجوار الطفلين، ثم وقفتا أمامي بِصُرّتيهما، كما دخلتا هذا القصر الفاخر ذات يوم، شعرت بالحرارة تسري في جسدي، غصصت. أسمع ميديا فوق ذلك تسأل: حسنا، هل تأتي معنا؟ لم تكن هذه الفكرة قد خطرت لي أبدا، وهذا بالضبط ما أرادت أن تظهره لي بسؤالها. سأزوركم كثيرا، لا بد أن أكون قد قلت هذا، أنتِ والأطفال، وضحكتْ، ليس بازدراء، وجدتها أقرب إلى التسامح، وتركت الآخرين يتقدمونها، وقفت لصيقة بي، ألقت يدها على رقبتي وقالت: لا تكترث يا ياسون، كان لا بد أن يحدث ذلك.

أستطيع أن أتحسس اليد على رقبتي، حين أريد، وما قالته لي، كثيرا ما كان عزاء لي. ولكن لمن أروي هذا. لتيلامون؟ لم أعد أستطيع منذ وقت طويل أن أرضيه. لم يتخذ إمرأة، يكتفي بعلاقات الحب. هو بالذات أخذ علي أنني لم أنتقل مع ميديا إلى عش الطيور هذا عند سور القصر. إنه يحرض ضدي في الحانات التي يرتادها وينفق فيها قليل

المال الذي أعطيه على الشراب. إنه في الآخر واحد من الأصحاب الأخيرين من فترة إزدهارنا. يحدث أن نلتقي دون موعد في ظل "الأرغو"، التي كانت قد رست قرب الميناء باحتفالات كبيرة، والآن لا يلتفت إليها إنسان، وهو ما يعني أن أعمالنا قد نسيت. مرة ضبطت تيلامون يبكي. إنه يشرب. هنا يصبح المرء شكاء. أخاماس على حق: تصبح الأزمنة أعظم كلما ابتعد المرء عنها، هذا أمر طبيعي، ولا جدوى من التشبث بالأزمنة العظيمة. ولكن بأي شيء على المرء أن يتشبث. ميديا؟ الهلاك معها؟ إن المرء ليجن.

بدونها كانت كولخيس قد بقيت مغلقة أمامنا. قادتنا إلى أبيها، الملك ابيتس، استقبلنا، وقد بوغت، قدمتنا ميديا برسمية ومضت، رغم أنه طلب منها بلهجة آمرة أن تبقى. ذهبت. كان يجلس وحده في القاعة الكبيرة من الخشب التي أثثت ببذخ وزينت بنحوت على الخشب. رجل نحيل لم يكد يملأ كرسي العرش، كان وجهه ناحلا وشاحبا يحيطه شعر أسود مجعد، كتلة من التعاسة، قال تيلامون، حين كنا في الخارج ثانية، أما أنا فقد خطرت لي كلمة أخرى: قابل للكسر. مظهره كاملا كان قابلا للتهشم، كذلك الصوت الذي رحب به بنا وعبر عن تشرفه بزيارة ضيوف قادمين من مكان بعيد، وسيخبرونه بالتأكيد عما قادهم إليه. أبلغته بمهمتي، ليس بتعالٍ، ولكن بوضوح، أن أعيد فروة الكبش التي أتى بها عمي فريكسوس إلى كولخيس بإذن منه، هو الملك ابيتس، إلى مكانها الأصلي وتعزيز علاقات الصداقة من خلال ذلك بين بلدينا وإنشاء طريق بحري منتظم بينهما.

في البدء ظننا أن ابيتس لم يفهمني. نعم، نعم، فريكسوس، قال

وضحك واضعا يده في حركة شيوخ غير لائقة أمام فمه، ثم روى نكتة سخيفة، قصص حب مخجلة نوعا ما، أخفق فيها العم على الدوام. تكلم وتكلم، أتتنا فتيات بنبيذ وأرغفة خبز الشعير اللذيذة، التي لا زلت حتى اليوم أكلف الكولخيسيات أن يخبزنها لي، لا أحد يستطيع أن يعدها مثل ليسا، ثم أذن لنا فجأة بالانصراف، دون أن يقول كلمة عن طلبنا، وفي المساء الثاني طلب منا الذهاب إليه ثانية، في تشكيلة كبيرة هذه المرة، أقيم استقبال رسمي، كما لو كنا لم نعرف بعضنا بعد، جلس ملك آخر بأبهة وبثياب البلاط على العرش، محاطا بالشيوخ، إلى جانبي على المائدة جلست السمراء، ميديا المنغلقة واختها كالكيوبا ببشرتها السمراء، الشعر الأشقر الكث، القوي، والعينين فولاذيتي الزرقة. فكرتُ، يمكن لنساء الكولخيسيين أن يربكن المرء، وبدأت أشعر بالراحة، هنا جاءتني الرشقة الباردة. نهض واحد من الشيوخ، أورد سلسلة من العبارات غير الملزمة وأعلن في الآخر عن مشيئة الملك. إنه يفرض علي تجارب معينة قبل أن يترك لي الفروة. علي أن أغلب الثيران التي كانت تحرسها، وعلي أن أغلب الأفعى الجبارة التي علقت الفروة تحت حمايتها في بستان آريس في أغصان شجرة بلوط، والمحاطة، كما علم رجالي، بهالة من الجبروت.

شعرت بغيظ يتصاعد في داخلي. ما هذا. هل كان هذا فخا. هل ينبغي أن أنساق لذلك. بحثت عن نظرات رجالي، حيرة لدى الكل. كان بودي أن أقفز، أقلب المائدة وأخرج. ولكننا كنا من قلة عدد لا أمل فيها.

الأفعى. لا أزال أحلم بها. الوحش الكولخيسي الذي يلتف بطول

عظيم على جذع شجرة البلوط، أراها في الحلم هكذا، كما يصفها رجالي: بثلاثة رؤوس، بغلظ جذع شجرة البلوط، وتنفث النار في كل الأحوال. لم أتدخل، ربما لم أتبين كل شيء في انفعال الصراع، ويريد الكورينثيون أن يسمعوا أن الحيوانات في الشرق المتوحش مرعبة ولا تُغلب أيضا، وكان يفزعهم أن يقول المرء لهم إن الكولخيسيين يربون الأفاعي عند مواقدهم كآلهة للبيت، ويطعمونها الحليب والعسل. لو عرف الكورينثيون الطيبون أن هؤلاء الغرباء لم يكفوا هنا أيضا عن تربية الأفاعي سرا وإطعامها. لكنهم لا يدخلون أبدا البيوت الفقيرة للغرباء في طرف المدينة، أو مسكن ميديا، كما أفعل أنا، حين تقودني الرغبة إليها دائما، ويحدق في من رماد موقد ليسا رؤيس أفعى بعيون بنية ذهبية، حتى تطردها ليسا بصفقة خفيفة من يدها. إنهم يعرفون كيف يدجنون الأفاعي، هذه هي الحقيقة، رأيت ذلك بأم عيني. رأيت كيف قرفصت ميديا عند جذع شجرة البلوط العظيمة تلك، كيف انحنت الأفعى هابطة إليها وفحت لها، كيف بدأت ميديا تترنم بصوت واطىء، ثم تغني أغنية تجعل الوحش هادئا، حتى أن ميديا استطاعت أن تصب على عينيه عصير غصن عرعر قطع للتو كانت تحمله معها في زجاجة صغيرة فأنام التنين، أو هل ينبغي أن أقول: التنينة.

كان علي أن أروي مرارا كيف تسلقت الشجرة، كيف أمسكت بالفروة وهبطت بها سعيدا وفي كل مرة تغيرت القصة قليلا، كما ينتظر مني المستمعون، ليخافوا حقا ويشعروا في النهاية حقا بالارتياح. لقد بلغ الأمر مبلغا، حتى أنني نفسي لم أعد أعرف تماما ما شهدته في ذلك البستان مع تلك الأفعى، ولكن لم يعد ثمة من يريد

أن يسمع ذلك على أية حال. إنهم يجلسون في الأماسي أمام النار ويغنون عن ياسون قاتل التنين، أحيانا أمر بهم، فلا يعبأون، أعتقد أنهم لا يعرفون حتى أنه أنا الذي يتغنون به. سمعت ميديا معي مرة الأغاني. قالت في النهاية: لقد صنعوا من كل منا الشخص الذي يحتاجونه. منك البطل، ومني المرأة الشريرة. وهكذا فصلونا عن بعضنا.

كانت لحظة محزنة. وحين أتذكرمثل هذه اللحظات فإنني لا أريد بعدها أن أصدق أنها قتلت أخاها، فقط لماذا. ويقول صوت خافت في داخلي، إنهم نفسهم لا يصدقون، وأخاماس أقلهم تصديقا، لكني أصبحت متشككا أزاء أصواتي الداخلية، لقد أوضح لي المرء أنها تأثرت بميديا ومن يدري لا تزال كذلك، لديها سلطة على البشر، إنها تنيم الواحد. حين تكون قد حدقت فيه وقتا كافيا بعينيها ذات الوميض الذهبي تحت الخط الغليظ لحاجبيها المنعقدين فإن المرء يعتقد ما تحاول أن تقنعه به. كريون نفسه حذرني من ذلك.

الملك كريون مثل أب لي، ماذا أقول، أنه أحسن معاملة لي من أبي. فقد أبعدني أبي بعد كل شيء وأنا رضيع، قد يكون صحيحا لأنه أراد أن يوفر علي ملاحقة عمي بيلياس، سارق العرش، ولست أشكو من طفولتي، عشت مع شايرون مربياً في الغابات الجبلية لثيساليا حرا وفي نفس الوقت حصلت على كل المعارف التي يحتاجها الفرد من عائلة طيبة: لا زلت أتذكر كيف أثارت معارفي في الطب إعجاب ميديا. كان ذلك منذ زمن طويل. لا بد للمرء أن يحسم أمره في وقت ما، ماذا يريد، ويجب أن يكون أيضا قادرا على نسيان ما لم يعد يحتاجه بل

يثقله وحسب. هذا ما كان يقوله أبي، أراد أن يعود إلى العرش، هذا مفهوم. كان غريبا عني حين قابلته أول مرة، وإلى جانبه المرأة التي عانقتني ودموعها تنهمر، والتي قد تكون أمي، أو ربما لم تكن. كانتها بلا شك. بالمناسبة إمرأة ضخمة. كم كانت ايديا أم ميديا مليحة، إذا قارنتُها بها. جلست نحيفة جدا إلى جانب الملك، ولكن ليست كظله. نحيفة ومتينة. وبالمناسبة محترمة جدا. لقد وجدنا الأمر في الواقع مبالغا فيه، كيف يعامل الكولخيسيون نساءهم، كما لو كان يتوقف على رأيهن وصوتهن شيء جوهري. استطعت أن ألاحظ أن ايديا لم تكن موافقة أبدا على الشروط التي فرضها الملك علي، لقد تحدثت بحدة إليه، انكمش في معطفه الملكي وتصنع الصمم. كان علينا أن نتساءل: هل علينا أن ننساق إلى المغامرة التي قد تكون خطرة كما أدركنا تماما. أم أن علينا أن نغادر ونترك الفروة، هذه الفروة الغبية، التي كنت قد سئمت منها، في مكانها ونتملص في الوطن من الموضوع بقصة ما. لم أكن متلهفا على أن أعلق كجثة في أغصان شجرة بلوط كولخيسية ما. لم يبدُ أن ثمة خيارا ثالثا.

لم نتبين الظروف التي وقعنا فيها في كولخيس، وفي نقطة صعبة بالذات كما بدأنا نحس تدريجيا. لم نكن نعرف النساء الكولخيسيات. لقد حفظنا أسرارهن عن الغرباء أمثالنا دائما. أقول الآن نحن وأعني الكورينثيين، وإنن فكريون على حق حين يقول: لكنك تنتمي إلينا يا ياسون، هذا ما يراه حتى الأعمى. ولا يحط المرء من قدر الكولخيسيين، هذا ما حاولت أن أوضحه لميديا، حين يقر المرء أنهم مختلفون. عندها ضحكت بطريقتها الساخرة، التي تثير حنقي أكثر

فأكثر، لكن كان عليها أن تقر أن الكولخيسيين يتزاحمون هنا في حيهم ويتمسكون بتقاليدهم ولا يتزوجون إلا من بعضهم، وهم أنفسهم يصرون على أنهم مختلفون. يرى أغلب الكورينثيين أنهم أدنى منهم، وكذلك الملك كريون. ولكن أرجوك يا ياسون، إنهم في الآخر متوحشون، قال مؤخرا ووضع يده على ذراعي. متوحشون ساحرون، هذا ما يجب الاعتراف به، وإنه لأمر مفهوم جدا أننا لا نستطيع أن نقاوم هذا السحر دائما. مؤقتا. ابتسم برفق. كان لدي شعور غريب. أعتقد أنه يريد شيئا معينا مني. تقول ميديا: إنه يسحقك بضرباته الرفيقة، ثم مرت بظهر كفها على وجنتي، ببساطة، كما تفعل مع صبي. كما لو أنها لم تعد تضعني في حسابها. لكن كريون يضعني في حسابه. ماذا أضع أنا في حسابي، هذا ما لا أعرفه، ولا أرى أحدا أستطيع أن أسأله ذلك. أقلهم أصحابي القدامى، القليلون الذين تبعوني إلى هنا، لأنهم بلا وطن أو لأنهم، مثلي، لم يستطيعوا أن ينفصلوا عن فتاة كولخيسية. إنهم يتسكعون في خمارات الميناء ويثيرون أعصاب الناس بإشفاقهم على أنفسهم. إني أتجنبهم. نعم، كان المرء يعرف ذات مرة لماذا يعيش، لقد مضت تلك الأزمنة.

يراد الآن استجوابهم كما أسمع. أو الاستطلاع منهم على أية حال. عما إذا كانوا يستطيعون أن يشهدوا بشيء حول مقتل أخ ميديا أبسيرتوس. أرجوك يا أخاماس، عاتبت الرجل، ماذا عليهم أن يقولوا، وفكرتُ في السر، ما يعرفه أخاماس أيضا بالطبع، سيقولون كل ما يريد أن يسمعه المرء منهم مقابل خابية من الخمر. هل يريد

المرء أن يسمع منهم شيئا معينا؟ ولكن هذا مستحيل. ستُستجوب أنت أيضا يا ياسون، قال أخاماس.

لا أشعر بالارتياح من ذلك، لا أشعر بالارتياح أبدا. ولكن ماذا تراني أعرف، ماذا أستطيع أن أقول. لقد رأيت أبسيرتوس، هذا صحيح، كان غلاما جميلا ووسيما ذا أنف دقيق شجاع في الوجه الأسمر الداكن وكان يجلس إلى المائدة إلى يسار أبيه اييتس، الذي لاطفه باستمرار. وقد أشعرني هذا بالنفور، كما أتذكر. بدا أن كل واحد يتملقه، صبي مدلل جلس في عشه المرفه مطمئنا، كان على الواحد منا أن يشق طريقه بشكل آخر، ولكن كانت تلك مشاعر عابرة وحسب، غريب حتى أن أتذكرها. من المؤكد أن مقتل هذا الصبي ثبت انطباعي عنه وشعوري الغامض بأن مصيري ارتبط من لحظة معينة بمصيره. حلقة الوصل كانت ميديا. بعد يومين من استقبالنا، يومين لم أعرف ما أفعل خلالهما، يومين لم يكترث فيهما أحد بنا، هل كان المزاج في القصر قد انقلب فجأة. بدا أن رعبا قد أصاب الجميع، مضوا في الممرات صامتين، مضطربين، لم يكن ثمة من هو مستعد للحديث، حتى التقيت كالكيوبا التي كانت قد فقدت رشدها من الحزن، كانت في طريقها إلى ميديا، التي كنت ذاهبا إليها، لاستشارتها. إسمها يعني، همس الكولخيسيون إلى رجالي: التي تملك النصيحة الجيدة. عليها الآن إذن أن تكون جديرة بهذا الاسم.

كانت تقرفص في غريفة معتمة ولم تعد تبدو نفس المرأة. كانت تبكي، هي الآن ساكنة، متصلبة، شديدة الشحوب. أحاطت ذراعيها بيديها، كما لو كان عليها أن تمسك بنفسها. بعد برهة طويلة قالت

بصوت لا حياة فيه: أتيت في ساعة غير مناسبة يا ياسون. وبعد وقت طويل، كما لو كانت تسأل نفسها: أم في ساعة مناسبة بوجه خاص. لم أجرؤ أن أسأل. أصبحت فائضا تماما عندما دخلت الملكة، ايديا، مجنونة من الغضب، أسرعت بناتها إلى جانبها، أمسكن بها، أومأت كالكيوبا إليّ فخرجتُ.

شاع أن أبسيرتوس قد قُتل. الصبي المسكين. أشيع أنه قطع تقطيعا. هزني ذلك. لنبتعد، لنبتعد وحسب. أعددنا العدة للرحيل. هنا أرسلت إليّ ميديا خبرا بأنها تريد لقائي. مساء عند "الأرغو". ثم وقفت هنا وأوضحت، أنها ستساعدني للحصول على الفروة. دون تقديم سبب. ثم ذكرت لي كل خطوة عليّ أن أقوم بها. كيف علي أن أوهم الملك بتركي الفروة متظاهرا بالاستعداد للرحيل. كيف علي أن أحضر إلى القصر لشرب نخب الوداع. كيف ستكفل هي ألا يزعجني لا الحرس في القصر ولا أولئك أمام بستان آريس. لماذا ليس عليّ أن أخاف من الأفعى التي سمعت عنها قصصا مرعبة وما إلى ذلك. سير العملية بكل التفاصيل. وحين انتهينا شعرت بالدوار، نهضت ميديا وقالت ببرود مثل كل الأشياء الأخرى: شرط واحد: أن تأخذني معك. وأنا، مباغتا، ممتلئا بمشاعر متناقضة قلت ببساطة: نعم. وبعد أن قلت هذا، عرفت أنني أردته، شعرت بفرح فضولي غريب وسألت نفسي عما إذا كانت ميديا قد توقعت مني أن أعانقها، أو أقوم بأي إشارة مهمة، لكنها رفعت يديها بالتحية فقط وانسلت ذاهبة. هكذا تفعل حتى اليوم. تعامل ما هو مهم بالنسبة لها بشكل عابر.

ثمار الموت هذه فقط شرحتها لي مرة بجدية. كان علينا أن نلتقي

مرارا، ولاحظتْ كيف أرعبني هذا البستان. تدفن النساء وحدهن لدى الكولخيسيين، جثث الرجال تعلق على الأشجار، حيث تستطيع الطيور تنظيفها حتى لا يبقى سوى الهيكل العظمي، ثم تفصل هذه الهياكل حسب العوائل، وتحفظ في مغارات الصخور، قالت أنها طريقة نظيفة ومهيبة، فما الذي يزعجني فيها. يزعجني فيها كل شيء تقريبا، ولكن خاصة فكرة أن الطيور تقطع وتأكل جثة بشرية مثل أي رمة. وعظتها بأن الميت يجب أن يدفن في قبره أو تغلق عليه مغارة الصخور دون المساس بجسده، ليبدأ طريقه عبر العالم السفلي ويستطيع الوصول إلى الآخرة. فردت علي بأن الروح لم تعد في الميت، وأنها تسللت سالمة وهي تكرم من قبل الكولخيسيين في أماكن مخصصة لذلك، وللبعث في الحياة في جسد آخر فإن الإلهة تجمع الأجساد المقطعة للموتى إلى بعضها. قالت أن هذا هو الإعتقاد الراسخ للكولخيسيين. راقبتني بانتباه بينما كانت تتحدث. وسألت في النهاية ألا يتوقف الأمر على المعنى الذي يعطيه المرء لفعل ما؟ كانت الفكرة غريبة علي، كنت متأكدا ولا زلت حتى اليوم أن ثمة طريقة صحيحة واحدة لتكريم الموتى وطرقا كثيرة خاطئة. أنا لا أعرف بالمناسبة لماذا سألتني بعد ذلك عما إذا كان لدينا في بلدان الشمس الغاربة أضاح بشرية. ولكن كلا، قلت مستنكرا، أمالت رأسها ونظرت إلي بتفحص. قالت: كلا؟ ولا أيضا حين يتعلق الأمر بقرار خطير؟ قلت دائما كلا، قالت مفكرة: هكذا. ربما صح ذلك.

والآن بعد كل هذا الزمن، لم تنس حديثنا، مرت عليّ منذ قليل: لا أضاحي بشرية، ألا تزال تعتقد ذلك. آه يا مسكيني. ما كادت تختفي

عن نظري حتى قدِم هذا التورون مسرعا، شخص بغيض أهوج، تنشئة أخاماس، أراد أن يعرف ما قالت لي ميديا. ماذا حدث. هذا الضباب الذي تتركني أتخبط فيه، سأتمنى لو أني لم أعرف ميديا أو أني تركتها ومن معها في كولخيس على الأقل. نعم، حتى لو كانت الفكرة ترعبني. وأعرف في هذا، بدونها ما كان أحد منا قد غادر كولخيس.

تهاجمني الآن ثانية الصورةُ التي احتفظتُ بها كل هذه السنين تحت السطح. الصورة الوحشية التي أحملها عنها والتي لا تقاوم. ميديا ككاهنة أضاح أمام مذبح إلهة عجوز من إلهات شعبها، متلحفة بفروة ثور، قلنسوة مصنوعة من جلد خصى الثيران على رأسها، علامة الكاهنة التي لها الحق أن تجري أضاحي الذبح. وقد فعلت ميديا هذا. هزت السكين أمام المذبح فوق الحيوان الشاب المزين وشقت شريان رقبته، فسقط على ركبتيه ونزف. لكن النساء تلقين الدم وشربن منه، وكانت ميديا الأولى، وقد ذعرتُ منها، ولم أستطع أن أحول نظري عنها، وأنا متأكد أنها أرادت أن أراها على هذا النحو، فظيعة وجميلة، رغبت فيها كما لم أرغب في إمرأة من قبل، لم أكن قد عرفت أن هذه الرغبة التي تمزقك موجودة، هربت حين بدأت النساء يدبكن في نشوة الدم ويرقصن ببشاعة، وعرفت أني لم أعد قادرا على المغادرة دون هذه المرأة. كان لا بد أن أحصل عليها.

فعلتُ كل ما أمرتني به. تركتهم يضعون هذه القلنسوة الفظيعة على رأسي لأتغلب على الثيران، إنها تحتوي سحرا وتجعلني غير مرئي، تركتني أُدفع بموسيقى طبلها الوحشية التي سرت في أعضائي،

أصابتني بالجنون، لم أعد أعرف نفسي، مضيت بين الثيران ونبحتها، كنت قد فقدت عقلي، وأردت أن أفقد عقلي. خدعت الملك وشربت معه نخب الوداع قبل أن يغرق هو وحراسه في النوم. تركتني أُدهن بمرهمها من الرأس حتى القدم، قيل أن هذا حماية من سم الأفعى. صدقت كل ما تقول. ماذا حدث لي، لا أدري. كان أمرا فظيعا، هذا ما أعرفه بالتأكيد. فقدت اعتدادي بنفسي.

حين أفقت، كنت بائسا ومريضا مرض موت، وكانت تقرفص قربي، ميديا، كان الوقت ليلا، تحيطنا غابة، حركتْ في قدر كان يقف على ثلاثة قوائم فوق نار. جعلها الضوء المرتعش تبدو عجوزا جدا. لم أكن قادرا على الكلام. كنت مشرفا على الموت، لفحني تنفسه، كان جزء مني لا يزال في هذا العالم الآخر الذي نخاف منه محقين. دونها، دون ميديا، كنت سأهلك لا محالة. لا بد أن أكون قد تفوهت بشيء مثل: أخرجيني من هنا يا ميديا، وقالت فقط: نعم، نعم. غرفت مغرفة من الغلاء الذي طبخته، وطلبت مني أن أشرب. كان طعمه بغيضا وجرى محرقا خلال شراييني. وضعت ميديا يدها وقتا طويلا على صدري وأثارت بذلك فيّ عاصفة أعادت إلي الحياة. كان ذلك أعجب ما شهدت، أردت أن لا يتوقف ذلك أبدا. في وقت ما تمتمتُ، أنت ساحرة يا ميديا. وقالت ببساطة دون أن تستغرب: نعم. نهضت من هذا المهجع وقد استعدت الشباب وامتلأتُ قوة. كنت قد فقدت أحساسي بالوقت الذي مر. بدأت أفهم منذ هذه الساعة المهابة والاحترام اللذين تتمتع ميديا بهما بين كولخيسييها.

وأفهمُ أخاماس أيضا، وأهالي كورينث الذي أرادوا التخلص منها.

التخلص منها؟ من أين لي بهذه الكلمة الشريرة، هراء علي أن أنساها. قبل ذلك، حين نظر أخاماس إلي بموهبته المراوغة في المراقبة، كيف تأرجحت بين تعلقي بميديا وواجبي ورغبتي أيضا في خدمة الملك كريون، ثم حين قدم لي نصيحته الوضيعة أن أذهب إلى بحارتي في الحانات أو إلى واحدة من هاته العاهرات للترويح عن نفسي، أوشكت من الغضب أن أمسك بخناقه وسط ساحة سوق كورينث. وهو؟ ماذا قال؟ حسنا، قال غير متأثر. اللهُ يا ياسون. أعرضتُ عنه وتركته واقفا. ثمة شيء يمضي هنا على غير ما يرام، ولا أستطيع وقفه.

لو لم تكن متعجرفة هكذا. فقد كانت في الآخر المستجيرة، كانت تحتاجني. وحين أخفقت خطتي في مساعدة أبي في استعادة كرامة الملك في وطني جولكوس بمساعدة الفروة الذهبية، حين كان علي أنا أيضا أن أهرب، كنا جميعا نعوّل على رحمة الملك كريون. كان على أن أقول لها هذا مرارا. وهي؟ لم أغادر كولخيس لأذلّ نفسي هنا، تقول مثل هذا ولا تربط خصلات شعرها المنكوش كما تفعل نساء كورينث بعد الزفاف وتقول أيضا: ثم ماذا؟ ألا تجدني أجمل هكذا؟ عديمة الحياء. تعرف تماما ما أجده جميلا حين أجده الأجمل. وتمضي في الشوارع مثل عاصفة وتصرخ حين تكون غاضبة، وتضحك بصوت عال حين تكون مبتهجة. أنتبه الآن إلى أنني لم أعد أسمعها تضحك من وقت طويل. لكن شيئا واحدا لم تسمح بأن يسلب منها، أن تمضي في المدينة بصندوقها الخشبي والربطة البيضاء على الجبين، كعلامة على أنها تتنقل كشافية ولا تريد أن يزعجها أحد في تجمعها، وقد احترمها الجميع، ونشرت العوائل التي ساعدت فيها مريضا ثناءها.

أصبحت في كورينث موضة أن يتجه المرء إليها وليس إلى الفلكيين أو الأطباء من مدرسة أخاماس. هذه التعيسة أصبحت متعجرفة، حتى أنها سمت أمام أحد موظفي الملك، الذي أشفت إبنه من صداع لا يطاق، فن الإشفاء لهؤلاء الرجال القديرين باختصار "سحرا فاسدا" – كلمة نشرها هذا الرجل بحكم النزاهة في القصر. حدث بعد ذلك أول خصام شديد بيننا. إنتبهي إلى ما تقولين، صرخت في وجهها، وردت هي بهذا الهدوء المستفز، هذا ما كانت تنوي لتوها أن تنصحني به. قلت: إنهم أعلى منك، فردت: سنرى. إسمع، أضافت، كنت نفسك قد عرفت ذلك بشكل أفضل ذات مرة. تُرى، ماذا علمك شايرونك؟ هذه التمثيليات الحمقاء التي يخدعون بها الناس؟ كان شيئا غريبا. ما علمني اياه شايرون كان فن الإشفاء الجيد الذي تمارسه ميديا، بدأت أنساه. إنه لا ينفعني هنا. علي أن أعرف هنا حول الحوادث في القصر. إنها لا تريد أن تفهم أن هذا بالغ الأهمية لنا.

بالطبع كانوا أعلى مكانة منها. كان عليها أن تخلي مسكننا المشترك في جناح جانبي من القصر. أوضح المرء لي: أن ذلك ليس موجها ضدي. ولكن على المرء أن يبعد عن العائلة المالكة ما أمكن شخصا له جاذبية تسبب المرض. إذا كانوا قد نافقوا وكذبوا وقدموا أسبابا كاذبة فقط من أجل أن يخرجوها من القصر، فلا بد أن الأمر جاد بالنسبة لهم. بالطبع انتظرت أن أدافع عنها. ولو كنت قد ذهبت معها لجعل ذلك وضعنا أكثر سوءا بلا ريب.

ذهبت. أُعطِيَتْ شخصين من جماعة أخاماس ليمنعوا أن تلحق اللعنة بالقصر؟ حين استجوبت أخاماس على أثر ذلك انفجر في

ضحكة مجلجلة. وصاح متسليا إلى أبعد حد، آه هذه العواطف السانجة. كما لو لم تكن ميديا قادرة أن تلعن دون كلمات من وما تريد مرورا بكل حارس.

زرت ميديا في كوخها الطيني بشكل منتظم في البدء. مؤكد أن ما بيننا لم يعد كما كان، ولكن هذا أمر طبيعي، هذا ما أراه في كل مكان حولي. قربني كريون منه، ألقى على عاتقي جميع الواجبات والخدمات الممكنة بينها واجبات مشرفة ترفع الشخص. الفروة موضوعة تحت أضاح كثيرة أخرى أمام المذبح وقد أخذت تتعفن. آفاق مستقبلي في كورينث ليست سيئة، إنني أشكل حول هذا أفكاري الخاصة. لمح أخاماس. كل شيء يمكن أن يمضي بشكل جيد، لو أنهم لم ينبشوا هذه القضية القديمة. قتلت ميديا أخاها. حسنا وإذا كانت قد فعلت؟ من يضر هذا اليوم. ولكن يبدو أنه ينفع الكثيرين، الكثيرين جدا، لا أستطيع أن أخفي ذلك عن نفسي.

ماذا أفعل. هي وحدها، ميديا، تستطيع أن تقدم لي المشورة. فكرة مجنونة.

كريون: ولم تبعث النساء لما هو طيب، إنهن أستاذات الشر.

اويريبيدس، ميديا

أغاميدا

لقد نجحت في ذلك، رأيتها تشحب، جاءتني الكلمات الصحيحة على غير انتظار، ولكن كرهي عملَ فيها عمله شهوراً كثيرة. في اللحظة الصحيحة كانت جاهزة. امتقعت ميديا. رأيتها ترفع يديها، كما لو كانت تتوسل إلي. بالطبع لم تفعل هذا، حاولت أن تتماسك. كانت ستثير ضحكات السخرية. أم أن هذا غير صحيح؟ هل أخجلتها أكثر من خلال سماحتي؟

أحيانا تتعلق كيفية سير الأمور بخيط. كما كان الحال يومذاك قبل زمن طويل، حين خانتني، نعم خانتني، سواء أرادت أن تعرف هذا أم لا، ثغرات الذاكرة التي تسمح بها لنفسها. أو قبل وقت قصير حين مرضت. كما لو كانت قد حدست أن الكارثة تقترب. لكم أود أن أكون أول من يُبلغها بها. وددتُ، وددت جدا لو رأيتها وهي تتلقى الخبر وتتركني أمرع في رعبها. غضبتُ حين لاحظتُ مبلغ ارتفاع الحمى لديها. كيف تهربت ببساطة من خلال مرضها. في نفس اللحظة أدركت أنها تحتاج إلى عون، ميديا، الشافية الكبرى، تستلقي، حيرى، وبلا عون، قفز قلبي، أخيرا أصبحت رغبتي الصميمة التي وجهت طفولتي حقيقةً، سأكون مساعدتها، سأبقى عند مهجعها، أعتني بها، أخدمها، أجعل مني شخصا لا يستغنى عنه، وأخيرا سأتلقى ما أردته بفظاعة دائما، عرفانها. حبها. احتقرت نفسي لذلك. لكن اللحظة التي سيطرت على أحلامي في النهار وفي الليل كانت قد أتت. كانت تحتاجني. سأنقذها. سيربطني بها عرفان أبدي، سأعيش

كالمفضلة على الجميع في الحلقة القريبة منها. ثم كان هنا ثانية، هذا الضباب الذي يداهمني عندما أكون قرب ميديا، داهمني، آخر مرة، أنا الآن في مأمن منه. آمنة من فنونها الملعونة ومن جانبيتها سيئة الصيت، قذفت بهذا إلى ليسا، التي أتت مسرعة وأبعدتني عن سرير ميديا بحركات الاشمئزاز التي لن أنساها، كما لو كنت أنا التي تمنت لميديا أن يصيبها هذا المرض.

أنا. أغاميدا التي كانت ذات يوم أكثر تلميذاتها موهبة، هذا ما قالته لي بنفسها. ستكونين شافية جيدة يا أغاميدا. لكنها أخمدت، كما تفعل دائما، فرحتي العارمة حالا: إذا تعلمتِ التحفظ. قالت: أنا لا أشفي، ولا أنت أيضا يا أغاميدا، ثمة ما يشفي بمساعدتنا. ما نستطيع أن نفعله هو أن نكفل تفتح هذا الشيء بحرية، فينا وفي المريض. حسنا. رصدت أكثر تطبيقاتها، التركيب وطريقة صنع الغلاءات المختلفة، طريقة تأثير الأعشاب، وتسمعت الكثير من عباراتها السحرية. أصبحتُ شافية. يفضل بعض الناس المجيء إليّ وليس إليها، إذ أنهم يشعرون بالحياء منها. كانت العوائل الكورينثية العريقة بالذات تدعوني منذ البداية إلى بيوتها فخمة التأثيث وتسمع بسرور دهشتي التي أبديها بصدق وأروي لها عن المساكن البسيطة التي تعيش فيها الغالبية في كولخيس. أن يكون حتى قصر الملك من الخشب، فهو ما لم يصدقوه، وهم يشفقون علي، ويدفعون لي أكثر كلما زاد إشفاقهم علي ويزدادون تقديرا لطريقتهم الخاصة في الحياة. تبينت ذلك بسرعة، بسرعة حصلت على الثياب التي كنت أتمناها، والأطعمة التي اعتدتها، كذلك على أنواع النبيذ الحلوة الثقيلة التي

يشربها المرء هنا. بريسبون، الذي يحتفل منذ وقت طويل بالانتصارات بإقامة الألعاب الاحتفالية التي يحييها للكورينثيين، بريسبون، نصح أصدقاءه بي. والآن حيث أخذ نجم ميديا بالأفول، حيث أُصبح أنا موضة في القصر كما يقول بريسبون، الآن أجد أحيانا حين أعود من عيادة مريض قطعة حلي في حقيبتي. خاتم، قلادة. لا ألبسها حتى الآن، نصحني بريسبون ألا أفعل. على المرء أن لا يثير حسد الآخرين. هو، بريسبون، لا يحسدني، إنني لست ندا له، لا يمكن إلا أن يناسبه ألا يبقى الكولخيسي الوحيد الذي يحظى بالتكريم. في الماضي لم يكن يجود علي بنظرة، لم أكن أنتمي إلى نمط النساء الذي يثيره، يجب أن يكنّ جميلات ويُطعنه طاعة عمياء، أعرف أني لست كليهما. لكنه الآن ينظر إلي كما يبدو لي بنوع من الدهشة التي تحتل مكان الرغبة، الدهشة التي يمكن أن تتحول إلى رغبة. لو عرفت أي شيء عن الرغبة الرجالية الغريبة، أهي هذا، ولا أستطيع أن أجربه بما يكفي.

بالطبع أرغت هذه الليسا وأزبدت في وجهي، سمتني أنا وبريسبون حقيرين، لم ينقص إلا أن تشتمنا مباشرة بأننا خونة، كما يفعلون فيما بينهم بالتأكيد. حين يقرفص معا، هؤلاء الكولخيسيون الذين شاخوا. حين يكونون في الساحة في حيهم الذي أقاموا فيه كولخيسا صغيرة، يحصنونها من أي تغير، يقربون رؤوسهم، فتنشأ في القصص التي يهمسون بها لبعضهم كولخيسا عجيبة لم توجد يوما في أي مكان. صرخت في وجه ليسا، سيكون الأمر مدعاة للضحك ، لو لم يكن الأمر محزنا هكذا. أجابت: أنت ترين ما تريدين رؤيته فقط،

هذه الحفنة من الشيوخ المتصلدين، الذين أقاموا بسبب الهم والحنين إلى الوطن والاستياء من المعاملة التي يتلقونها من الكورينثيين، عالم أحلامهم. ولكني استسهلت الأمور دائما، تجرأت هذه المرأة أن تقول لي، لقد شكلت دائما صورة عن الآخرين وخاصة عن نفسي، كما أحتاجها، كما أستطيع أن أحتملها. خرجت عن طوري. أنا؟ أجبت صارخة. أنا؟ وماذا عن ميدياها التي لا تخطأ؟ التي تحيط نفسها بمعجبيها فقط؟ ولا تترك أحدا غيرهم يقترب منها؟ هنا أصبحت ليسا هادئة. قالت: أنت مجنونة دون ريب. تعتقدين ما تقولينه. أنت تريدين إهلاكها بالفعل.

نعم، هذا ما أريده. سيكون اليوم الذي يحدث فيه هذا أسعد أيامي.

ليسا البقرة، هكذا يسميها بريسبون. التي خُلقت لترضِع، في البداية إبنتها أرينا، ثم وضعت أيضا إبني ميديا على صدرها، أسهمت، ما استطاعت، أن يبدو كل ما تفعله هذه المرأة موفقا. وأنها جلست هنا وكأنها في حصن من السعادة. لقد مضت في المدينة بخصلات شعرها مثل راية. لكن تلك الأزمنة انقضت. تربط الآن منديلا حول شعرها حين تذهب، وهذا نادر، إلى القصر. ياسون ينكرها علنا ويتسلل إليها سرا. نعم، نعم، أنا أعرف. وقفتُ أمام ليسا وسخرت منها، ميديا لا تحتاج أحدا لهلاكها، هذا ما تكفله هي لنفسها، وبشكل جذري. هنا أمسكتني من كتفي وخضتني، ليس لها مطلقا عيون بقرة حين تكون غاضبة، هذا ما يجب أن أقوله لبريسبون. علي أن أكف عن تلميحاتي السوداء، صرخت. في الوقت

المناسب تماما مرت الفكرة في رأسي، أن أتوقف. أبعدت يد ليسا عني وخرجت.

كان كل شيء قد حسم. كنت مستعدة. كان بريسبون ينتظرني. كان علينا أن نذهب إلى أخاماس. ينبغي أن تتخذ رغباتنا شكلا.

لو كنا قد ظننا أن أخاماس سيرحب بنا فقد أخطأنا تماما. تركَنا أخاماس ننتظر. إدعى أنه مشغول. أردت أنا، وقد جرحت بسرعة، أن أذهب. أمسكني بريسبون. من حق مضيفينا علينا أن نعلمهم بما يهدد المصلحة العامة. يمتلك بريسبون موهبة أن يكذب على نفسه. لا يعرف لفعلِه وتَرْكِه إلا الدوافع السامية. ما يدفعه حقا أن يسلم ميديا للسكين، أكتشفته شيئا فشيئا. لا يريد بريسبون أن يكون محبوبا فقط كما نريد جميعا. إنه يشعر بنفسه فقط حين يعجب به الحشد الكبير الذي يقيم له احتفالاته، لا يهم أن يؤمن بآلهتهم. يوهم نفسه بأنه يؤمن بها. يعتقد أن ميديا تحتقره لذلك. الأمر في الواقع أكثر سوءا: إنها لا تكترث به. لا بد أن يكون ذلك شوكة في لحمه، وقد وضعت في يده الأداة لينتزع هذه الشوكة مرة وإلى الأبد.

استقبلنا أخاماس بهذا التحفظ الذي يصعب وصفه، الذي قبلنا به الكورينثيون منذ البدء، والذي هو من حقهم كما يعتقد الواحد أو الواحدة منا، لن يمكن التغلب عليه أبدا. لقد ولدوا بقناعة لا تتزعزع بأنهم متفوقون على الناس السمر صغيري الحجم الذين يعيشون في القرى التي تحيط بمدينتهم، والذين تنتشر بينهم اسطورة أنهم سكان البلاد الأصليون، وأنهم أول من سكن ساحل هذا البحر. لقد كانوا أول من صاد الأسماك وزرع أشجار الزيتون هنا. واضح أنهم

اجتذبونا نحن الكولخيسيين، أنهم أرادوا أن يقبلونا في مستوطناتهم كمساوين لهم، أنهم عرضوا بناتهم على رجالنا وأبناءهم على بناتنا. كان الأفضل لديهم أن يخلطونا في حساء قبيلتهم وخليطهم من الشعوب الذي لا شكل ولا وجه له، وقد ضعف أمام هذا الإغراءحقابعض الكولخيسيين وقد أنهكوا بعد ضياع طويل واستنفدت قوة مقاومتهم، فألقوا بأنفسهم بين ذراعي هذه الجماعات الأدنى، ذابوا فيها وكفوا على هذا النحو أن يكونوا كولخيسيين. يبدو لي أنا أيضا أنه حمق أن يتمسك المرء بصورة عن نفسه لا يمكن الاحتفاظ بها. ولكن لماذا لا يبذل جهدا للارتقاء إلى الشكل الأعلى من الوجود. لا أريد أن أكون لا أحد. واضعة هذا الهدف نصب عيني وقفت أمام أخاماس.

كان أخاماس مهذبا، بطريقته غير الشخصية. لم يذكر الانتظار الطويل بكلمة، إلا أنه انحنى برسمية وأوعز مستجيبا لطلب بريسبون حتى إلى تورون، مساعده الشاب بالخروج من الغرفة. مر هذا قريبا جدا مني وغمز بعينه. نحن نعرف بعضنا جيدا، ينتمي تورون إلى رجال كورينث الشبان الذين لا أتمنّع عنهم، لأنهم يزدادون نفوذا وقد يكونون ذات يوم مفيدين لي.

في كورينث، على غيرما هو في كولخيس ، وجب أن يتحدث الرجل أولا، وحتى ، وهي عادة سخيفة، أن يتحدث الرجل عن المرأة. وهكذا تكلم بريسبون وبقي، كما اعتاد، في الوسط تماما بين الجرأة والخضوع. أعلم أخاماس أن لدي، أنا، أغاميدا، خبرا مهما أبلغه به. حول أخاماس نظره إلي. هذا الإنسان لم يودني. قال: تكلمي. قلت،

الأمر يتعلق بميديا. قاطعني أخاماس بغلظة: إن المهاجرين لا يدخلون ضمن مسؤوليته. أخذت عهدا على نفسي أن أجعله ينظر إلي باحترام. قلت ببرود، عليه بالطبع هو أن يقرر ما إذا كان يريد سماع خبر ليس من حقنا أن نحكم على أهميته بالنسبة لكورينث. هنا نظر إلي بدقة أكبر، مباغتا كما بدا لي، وكرر باستبداد: تكلمي. قلت له ما رأيت: تجسست ميديا في حفلة الملك على الملكة ميروبا.

لم يعجبه أن يسمع هذا. تجسست؟ سأل وقد رفع حاجبيه. ولكن كيف، يا عزيزتي. تحت نظرته عديمة الحياء خشنت أطرافي، أنفي الكبير الذي لا أظهره ما أمكن من الجانب أبدا، اليدان الغليظتان والقدمان اللتان حاولت وأنا صبية أن أخفيهما. كانت ميديا، التي فتحتُ لها قلبي فترة من الزمن وحدثتها عن خجلي، أول من حاول أن يقنعني بجمالي: حاجبي ذي الشكل الجميل، شعري الكثيف، صدري. لكن شعري منسرب جدا، صدري رخو، هذا ما يمكن أن يراه كل واحد، كذلك رآه أخاماس، لعنت بريسبون الذي جرني إلى هنا. أخاماس يحتقرني. لم تكن هذه تجربة جديدة علي. أبناء بلدي كولخيس الطيبون يحتقرونني أيضا منذ أن ندر ذهابي إلى مستعمرتهم الصغيرة وكثر ظهوري برفقة كورينثيين متنفذين، وتعزز ذلك حين قلت لهم، لماذا علي أن احتفظ بذكرى كولخيس وجدتها منذ وقت طويل لا تطاق. كنت سابقا قد تنكرت بشكل رائع، قالت لي ليسا مرة. لا يهمني إن كنت قد فعلت، فالكورينثيون يشكرون لي عدم مراعاتي. لقد اكتشفت بسرعة مبلغ ضرورة اعتقادهم بأنهم يعشون في أكمل بلد تحت الشمس. ما الذي يكلفني أن أعزز اعتقادهم؟

لكن على أخاماس أن يدفع ثمن كونه أشعرني باحتقاره. أنا أيضا أريد أن أتدخل في مصائر، وأنا موهوبة مثله تماما، ولا تتفوق رغبة على تلك التي تنطلق حين أكون قد نقلت أفكاري ونواياي إلى إنسان آخر حتى يشعر أنها أفكاره ونواياه.

كان أمرا مناسبا أن ما كان علي أن أخبر به أخاماس مطابق للحقيقة. صدفة – كانت هذه هي الكلمة الوحيدة غير الصادقة في تقريري – رأيت بالصدفة في حفلة الملك كراعية لغلاوكا إبنة الملك، حيث وقفتُ حسب التعليمات عند الباب، ملكتنا ميروبا تغادر الصالة. وحدها. ثم لاحظت أن ميديا تبعتها مباشرة. كيف اختفت الملكة أولا ثم ميديا خلف فروة في جدار ممر جانبي، ولم تظهر ثانية إلا بعد وقت طويل، على أية حال، طويل الى الحد الذي وجدته واردا أن أنتظر. حتى أنني وقد أصابني القلق أوشكت أن أدق ناقوس الخطر، لولا أن نوبة ضعف غلاوكا شغلتني تماما. لكنه يعرف هذا. نوبة ضعف، هذه هي الكلمة التي اتفق عليها الأطباء مع الملك حين بدأت إبنته الشاحبة الضامرة تتشنج ثانية، ترتمي على الأرض حيث يتخلع جسدها بطريقة فظيعة، ويبدو متقوسا بينما تدور عيناها حتى لا يرى المرء فيهما سوى البياض ويعلو الزبد شفتيها المطوطتين. كل من في الصالة شهد هذه الحادثة المخجلة، أخاماس أيضا. بريسبون أيضا، أدت بإحد عروضه الفخمة في تمجيد العائلة المالكة إلى نهاية مبكرة سيئة. أما أنا فكان علي أن أرش الماء على وجه التعيسة، أن أمسك برأسها الضارب يمينا ويسارا بوحشية، وكان علي أخيرا أن أمضي إلى جانب النقالة التي حُملت عليها إلى مخدعها، حيث حاولتُ أن

أعيدها إلى وعيها بكمادات الأعشاب وبعض التدليكات، وكان علي أن أنتبه بصورة بالغة أن أجعل أطباء الملك عديمي الحيلة يتقدمونني ولا أذكر فيما بعد نصيبي في إشفاء المسكينة غلاوكا.

أدركت فقط من خلال حدة والحاح الاستجواب الذي فرضه أخاماس علي مبلغ الجدية التي أخذ بها الخبر الذي نقلته إليه. أدركت الخطر الذي أوقعت فيه ميديا. أعجبني هذا، فقط لا ينبغي لها أن تجرني معها بأي ثمن إلى هذا الخطر. احتجت كل قدرتي على الإقناع، لأجعل أخاماس يعتقد أنني لم أتبع المرأتين خطوة أبعد وليس لدي أية فكرة عما يختفي وراء الفروة في الممر الجانبي. آمل من أجلك أن يكون هذا صحيحا، قال باقتضاب، لكني شعرت أنه يصدقني. فيما بعد فقط نبهني بريسبون، لا يلعب دورا لدى أخاماس أن يصدق أو لا يصدق، إذا ما قرر أن يسحبني إلى الهاوية مع ميديا، حيث أن ذلك كان واضحا لي أيضا في أسئلته: هنا يتعلق الأمر بحياة أو موت. الحجارة التي دحرجناها على ميديا كانت أكبر مما ظننا. تساءلت عما إذا كنت سأذهب إلى أخاماس أيضا لو أنني عرفت ذلك، وكان الجواب واضحا أمامي: نعم، حتى لو كنت قد عرفت. وحتى لو أن هذا الحجر سيقتلني معها.

ولكن لن يحدث هذا، سيمنعه أخاماس نفسه. إنه يحتاجني، وليس فقط في الحس البدائي وحده الذي جعلني أدرك في الحال: بالطبع هو يحتاجني للشهادة التي لا يمكن لأحد أن يقدمها بشكل مقنع مثلي. تركني ألعب هذه اللعبة التي أصلح لها جيدا. كان يحتاجني للشبكة التي وقعت فيها ميديا قبل أن تكون لديها فكرة عنها. هنا كنت تحت

تصرف أخاماس، جعلته لا يستغني عني. ولكن الأهم من ذلك، تبينت هذا بعد وقت قصير، كان ثمة تأثير آخر مارسته عليه وسلم نفسه له، حتى لم يعد يستطيع أن يفتقده. تراهن ميديا في عماها على قوة البشر، أنا أراهن على ضعفهم. وهكذا دغدت تلك الرغبات التي لم يرد أن يقر لنفسه بها، من جسده الصغير نوعا ما، التافه نوعا ما، ومن رأسه الكبير أكثر مما ينبغي، والأكثر تكورا مما ينبغي بعينيه الجاحظتين قليلا، وأصبح مدمنا عليها مثل أي شخص وضع لنفسه وقتا طويلا لجاما. لا أعني الحب بمختلف ألاعيبه، كان أخاماس محصنا ضده. أعني الطمع، أن يكون المرء شريرا بلا ورع، الذي يعبر عن نفسه أحيانا في لعبة الحب.

ليس عند أخاماس. إنه رجل مكون بشكل غريب من أجزاء غير متساوية. يعيش متخفيا في أبنية أفكار رُكبت بعناية، يعتبرها حقيقة، ولكن ليس لها هدف آخر سوى أن تحمي ثقته بنفسه المزعزعة قليلا. لا يطيق اعتراضا، يصب بعجرفة سخرية مبطنة ومكشوفة فوق عقول أصغر، يعني على كل شخص، لأنه يجب أن يكون متفوقا على الجميع. أتذكر اللحظة التي أصبح واضحا لي فيها أنه قليل المعرفة بالبشر ويعتمد على أن يعيش في هيكل من القواعد التي لا يجوز لأحد التشكيك فيها، وإلا فإنه يشعر بأنه مهدد بشكل لا يطاق. واحدة من هذه القواعد هي فكرة ثابتة بأنه رجل عادل. لم أرد أن أصدق أنه جاد في هذا، لكنه حين بدأ يلخص كل ما هو لصالح ميديا، أدركت أنه لا بد أن يكون الحصول على أدلة ضد ميديا في يده مناسبا له، أنه يضيق بتكلفها، وأنه شبع من وجوب الإجابة على عصمتها من الخطأ بمثلها

كي لا يشعر في حضرتها بأنه دونها. آه، درست جميع أنواع التأثير التي تنشرها هذه المرأة دراسة جذرية.

إذا أخطأت، يمكن أن أفقد كل شيء، لكني أعتمدت على حدسي وقاطعت أخاماس حين بدأ يمتدح فضائل ميديا بالسؤال عما إذا كان يؤمن بما يقول. انقطع نفس بريسبون، اعترف لي فيما بعد. لم يسمح أحد لنفسه بمثل قلة الحياء هذه في مواجهة أخاماس منذ أن أصبح أقرب مستشاري الملك.

توقف أخاماس وسط الجملة، رأيت المباغتة تومض في عينيه، واهتماما كنت قد استهدفته. أراد أن يعرف ما أعنيه. هنا قلت، حين يوجد إنسان كامل ومنزه مثل ميديا، فلا بد أن يكون ثمة موضع فاسد في مكان ما. إذن لديها شيء تخفيه. إذن تريد حقا أن تتجنب أن ينظر أحد خلف هذا الوشاح الجميل الذي تلفه حول نفسها بأن تجعل الآخرين يشعرون بالذنب. إنه، أخاماس يعرف تماما.

صمت أخاماس. ثم قال لبريسبون: ها أنك أتيتني بطفلة ذكية. أذكى مما ينبغي تقريبا، ألا تعتقد هذا. كانت المسألة لا تزال تقف على حافة الهاوية. هنا استخدمت الوسيلة التي كنت قد جربتها مرارا، إنها تؤثر في كل رجل: تملقته بلا حياء. قلت، لست أذكى من الآخرين، وبالتأكيد لست في مثل ذكائه. أحيانا يتوفر لي الحظ على أية حال أن يسمح لي أن أري أحدا يهمني، ذكاءه الخاص.

منذ ذلك الوقت يعجب بريسبون بي بلا قيد. أعتقد أنه لم يجرؤ وقتا طويلا بعد ذلك أن ينام معي، لأنه يشعر أنه دوني. وبالطبع لأنه لم يُرد أن ينافس أخاماس. حيث حدث أحيانا، حين كنا نتحدث مساء عن

خطط معينة، أن أبقى الليلة عنده. حسنا. يبدو أن الرجل لا يستطيع أن يكون في كل المجالات لامعا، وأنا أيضا لست حريصة على هذا. سهل علي أن أمنحه الشعور بأنه عشيق لا يتفوق عليه. لا أجد إثارة أخرى أكبر من أن أنام مع أكثر رجال المدينة نفوذا وذكاء.

هذه هي الحال الآن، وأجمل ما فيها: لا أحد يمكن أن يكون مطمئنا إلى أنها ستبقى هكذا. كل شيء يتأرجح، هذا ما يسليني أكثر، كل يوم قفزة في ماء جديد، كل يوم يتطلب مني أقصى ما أستطيع. فأخاماس يبقى بالطبع حذرا مني، وأنا أعرف بالطبع أن قسم روحه الأحب إليه لا يزال متعلقا بميديا، فهو يعمل ضدها باليد العائدة للملك، ويحاول بالأخرى التي يضعها على قلبه، حين ينحني أمامها، أن يوازن ثانية الوبال الذي يعده لها. قد يكون، في ذلك أيضا حسابات، هكذا هو، نجح في الآخر أن يجعلها تبقى مطمئنة وقتا طويلا. بالمناسبة أشعر أن في أعماق علاقة أخاماس بميديا التي يصعب استشفافها شيئا آخر، لا تكاد تمكن تسميته. فحين أقول تأنيب الضمير، لا أصيبه، وقد وجدت حقا ليس لدى أخاماس فقط وإنما لدى كورينثيين آخرين شيئا يربطهم ببعضهم أكثر من العائلة المالكة، دون أن يكون لديهم عنه فكرة. يبدو أن معرفة أسلافهم تنتقل بطريقة تحت أرضية، لا يمكن إثباتها إلى الأسلاف المتأخرين، المعرفة بأنهم استولوا على هذه البقعة من الأرض ذات مرة بعنف فظ من سكانها الأصليين الذين يحتقرونهم. لم أسمع أحدا في كورينث يتحدث عن ذلك، ولكن من خلال ملاحظة عابرة لأخاماس أصبح واضحا لدي ذات ليلة دفعة واحدة، ما تحققه ميديا له دون أن تدري تماما: تمكنه أن يثبت لنفسه

أنه يستطيع أن يكون مع بربرية أيضا عادلا، دون حكم مسبق وحتى ودودا. وقد أصبحت هذه الصفات، خلافا للمنطق، موضة في البلاط، خلافا لما هو بين الشعب الذي يمارس كرهه للبرابرة دون تأنيب ضمير ودون تقييد. مهمة أن أجعل أخاماس يعمل ضد ميديا دون تحفظ تحفزني. أوضح لنا في أول لقاء بأكثر أنواع العجرفة التي هو قادر عليها، علينا أن نتوقع عقوبة شديدة إذا لم نكبح فضولنا وحاولنا أن نكتشف ما يختفي خلف تلك الفروة التي رأيت ميروبا ثم ميديا تختفيان خلفها. قطعنا على نفسينا طائعين عهدا مقدسا، ولأنني لا أريد أن أموت، فقد التزمت بهذا العهد حتى الآن وسألتزم به دائما. أملنا نحن الثلاثة في السر ألا تتصرف ميديا بذكاء، وهذا ما لم تفعله أيضا، لقد تلصصت، بحذر في الواقع، ولكن من أراد أدلة على ذلك استطاع أن يجدها. ولكن يبدو أن السر الذي كانت في أثره من نوع مرعب جدا، حتى أن المرء لا يستطيع استخدام هذه الأدلة ضدها علنا. شرح لنا أخاماس هذا الوضع في جمل معقدة. أدركنا بسرعة، وكان بريسبون، الذي خطرت له فكرة أن يجد المرء بدلا من الجريرة التي لا يستطيع المرء اتهامها بها جريرة أخرى يستطيع المرء أن يستخدمها ضدها علنا وتؤدي أيضا إلى النتيجة المرغوبة. لم نتحدث ولا بمقطع من كلمة عما ستكون هذه النتيجة المرغوبة. لعبنا بخططنا التي ازدادت إحكاما أكثر فأكثر في حيز غير حقيقي، كما لو لم يكن ثمة من سيلحقه الأذى من لعبتنا. هذه طريقة مفيدة جدا حين يريد المرء أن يفكر بحرية وبشكل مؤثر في نفس الوقت. إنه بالمناسبة نوع من التفكير لم نكن قد عرفناه في كولخيس، يُزعَم أن الرجال وحدهم

يملكونه، ولكني أعرف أنني أملك هذه الموهبة. أتدرب عليها في السر فقط.

لم يكلفنا أخاماس بمهمة، كان لا يزال يريد أن يحتفظ لنفسه بحرية التراجع. أراد أن يراقب ميديا فترة أخرى. أراد أن يرى، ما إذا كانت ستعود من نفسها إلى رشدها، لكني كنت متأكدة أنها لن تتوقف عن جمع المعلومات التي تتعلق بذلك المر الذي تبعت فيه الملكة هنا وهناك دون أن تلفت الانتباه، عرفت ذلك أنا أيضا ولم يكن يسمح لي أن أعرفه. كنت أستطيع أن أعتمد على وهم ميديا بأنها لا تمس. مضت هنا وهناك كما لو كانت داخل جلد حماية. كنت أنا على العكس دون حماية منذ طفولتي، معرضة لجميع الجراح. هذا ما لم تستطع حتى تصوره، ميديا، إبنة الملك، ميديا، كاهنة هيكاتا. نعم ألحقتُ وعمري عشر سنوات ، حين ماتت أمي، بخادمات المعبد وسمح لي أن أتعلم على يد ميديا، كانت هذه أحر رغباتي منذ أن استطعت أن أفكر. بدت لي طريقة ميديا في الحياة هي الوحيدة التي تستحق أن يصبو المرء إليها، وهكذا لم أحزن فقط حين ماتت أمي. كانت ميديا صديقتها، لقد استخدمت جميع فنونها لإنقاذها، افترستها الحمى. لم أر ميديا من قبل حانقة هكذا حين مات أحد كانت قد عالجته. كان في هذا الحنق شيء غير لائق. حيث يعرف كل كولخيسي أن ثمة حدودا لقدرات الإنسان على الإشفاء، التي يمسك خلفها الآلهة الأشياء بأيديهم. لا يليق تكدير الآلهة من خلال حزن مبالغ فيه على الموتى، كما يفعل الكورينثيون وهو ما يثير استغرابنا، على أية حال تنقصهم أيضا المعرفة الأكيدة بأن أرواح الموتى تبعث بعد فترة من الراحة في

أجسام جديدة.

مهما يكن، ألحقتني ميديا برهط تلميذاتها كما وعدت أمي، علمتني ما كانت تعرفه، لكنها ويا لخيبتي، أبقتني بعيدة عنها، منعت عن الطفلة حبها الذي كانت تتلهف عليه، وبعد ذلك بوقت طويل، حين تقدمتُ وأصبحت في الصف الأول لتلميذاتها، قالت لي مرة بشكل عابر لقد فهمتُ بالتأكيد أنه كان عليها أن تعاملني بحزم أكبر مما تعامل به جميع الأخريات فلا يقال عنها أنها تحابي إبنة صديقتها. عندها بدأتُ أكرهها.

لا يستطيع المرء أن يحصل على كل شيء، قالت لي مرة. والآن، عليها هي أيضا أن تجرب، أن المرء لا يستطيع أن يحصل على كل شيء، المنصب المضمون في المعبد، وفي نفس الوقت حب الجميع. لم تلاحظ هذا أبدا. هنا في كورينث فقط أنتبهت إلي ثانية، حين انفصلت بسرعة عن الكولخيسيين الطيبين المضجرين واختلطت بناس كورينث الشبان. مرة سعت إلى الحديث معي، تظاهرت بالمشاركة وسألتني عما إذا كنت تعيسة. ضحكتُ فقط. كان ذلك بعد فوات الأوان.

تعيسة. لقد مضت تلك الأزمنة التي استطاعت فيها أن تسبب لي التعاسة. كما لو أن الأمر تعلق بأن يكون المرء سعيدا. تورون وأنا، نحن نناسب بعضنا بصورة رائعة، لأننا لا نتظاهر أمام بعضنا، يقول بريسبون، حلف مغرض، وهو يفهم ذلك، وهذا الحلف لا ينفي ارتباطات أخرى. فجأة يريدني الجميع. بريسبون أقرب إلى إثارة نفوري كرجل، شعره الأحمر المنتصب وجسمه الرخو. إنه يحتاج إلى أحد يسمعه، وهو يشعر بلذة أكبر في قذف كلامه أكثر مما يشعر به

حين يضطجع إلى جانب إمرأة. إعجابه بنفسه لا حدود له، لا يستطيع السيطرة عليه، يثير ثَنائي المبالغ فيه شبقه أكثر مما يفعل جسدي، أعرف هذا. ولم لا. كل امرأة تستخدم المواهب التي تملكها لتشد الرجل إليها. تورون فتح لي الطريق إلى بيت الملك، بريسبون يريني الطريق لأثأر من ميديا. فهو بالطبع الذي قدم الاقتراح الذي طورناه معا في ليلة طويلة حتى أدق تفاصيله، في ليلة نمنا في نهايتها معا ممتلئين رغبة. كانت الخطة فذة، لأنه ترك جميع الإمكانات مفتوحة. ستتهم ميديا بأنها قتلت أخاها ابسيرتوس في كولخيس. هذا سيعطي أخاماس الدليل المادي ليتخذ الاجراءات ضدها، إذا ما أراد ذلك، فهو لم يستطع أن يستخدم جريرتها الفعلية، أن تقتحم أكثر الأسرار داخلية في كورينث. نحن كلانا بالمناسبة، أنا وبريسبون، لم نخف تشفينا حول أن يكون لهذه الكورينث الرائعة، الغنية، المعتدة بنفسها والمكابرة، ممراتها تحت الأرضية بأسرارها المخفية عميقا. يعيش الإنسان العادي بضعفه أفضل بين ناس لهم أيضا جوانب ضعفهم.

كان علينا ألا ندع أخاماس يلاحظ هذا. كان الأفضل أن نحميه بوقائع معقدة معينة، ترتبك فيها طريقته في التفكير لا محالة. حين سألَنا عما إذا كانت ميديا قد قتلت حقا أخاها، أجبنا كما كنا قد اتفقنا، هذه الإشاعة التي انتشرت يومذاك في كولخيس، لم تدحض أبدا، حتى ميديا لم تكذبها. بدأ أخاماس يفكر بصوت عال، ليعطينا الفرصة لنبدد اعتراضاته. لكن هذا كان منذ وقت طويل، وهو يمس في الواقع الكولخيسيين وحدهم. الذين يعيشون على أية حال تحت حماية ملك كورينث، الذي لن يبخل عليهم بمؤازرته، إذا ماأظهروا

بجدية الحاجة إلى تسوية ذنب قديم. مهما يكن، مثل هذه الخطوة يجب أن يُفكر بها بصورة جذرية. عليه أن يستطيع الاعتماد على صمتنا المطلق أزاء الجميع. قال هذا مهددا. كان كلانا يعرف أن تغييرا في الوضع لصالح ميديا سيوقعنا في خطر. لدينا مصلحة في تردي وضع ميديا. أخاماس يعرف هذا. إنه يحتقر نفسه ويحتقرنا لأن مصلحته تتفق مع مصلحتنا، نحن نعرف هذا، وهو يعرف أننا نعرف. علاقاتنا تصبح تدريجيا بلا قرار، وأنا أستمتع بهذا. العلاقات الواضحة تضجرني حتى الموت.

نحتاج فقط أن نُبقي أعيننا مفتوحة، دخلت ميديا الشبكة بنفسها خطوة فخطوة، كان علينا فقط أن نكفل أن يعرف أخاماس بكل خطوة تخطوها، ليس عن طريقنا بالطبع. أنه قد أصبح واضحا لأخاماس أن ميديا لم تكف، صحيح بحذر ولكن بإصرار تابعت تحرياتها، شقت لنفسها شيئا فشيئا طريقا إلى جميع الناس في كورينث الذين تعد نفسها بالحصول منهم على معلومات حول تلك اللقية المخفية، التي لا بد أن تكون قد وجدتها في ذلك الممر تحت الأرضي والتي أحدس طبيعتها. ولكن حاشا أن أترك أدنى كلمة تنسل مني، لا أسمح لنفسي حتى في أعمق أعماقي أن أصيغ حدسي في كلمات. وأحيانا لا أفهم الخفة التي تتصرف بها.

لم تتورع من الإلتقاء بالملكة سرا، في ذلك القسم العتيق من القصر الذي يتجنبه عادة كل شخص. حين علم أخاماس – هذه المرة بالمناسبة دون تدخل منا، فقد كانت له مصادره الخاصة –، رأيته أخيرا غاضبا. الآن لم يعد قادرا على حماية ميديا. ولن يكلفنا أطول

من ذلك أن نحتفظ بمعلوماتنا لأنفسنا. كانت لحظة بين الرعب والفرح.

اتفقنا نحن الإثنان، بريسبون وأنا، أن يحدث كل منا شخصا واحدا عن الشبهة التي تحوم حول ميديا. كنا نشعر بالفضول، بأي سرعة ستنتشر الإشاعة. بعد يومين كان كل الكولخيسيين يعرف بذلك، ولكن قليلا من الكورينثيين فقط، الذين لم يظهروا بالمناسبة رغبة للإهتمام على الإطلاق بقضية قديمة للكولخيسيين لا تفتح الشهية. اضطرب ياسون بالطبع في الحال. لكن ميديا أيضا أظهرت تأثرا، وهو ما أثار انشراحي بالطبع. وجدت من الوارد أن تستوقفني في الشارع، رغم أنها لا يمكن أن تكون قد عرفت بمصدر الإشاعة. إسمعي يا أغاميدا، قالت دون مواربة، أنت تعرفين تماما، أن لا علاقة لي بموت ابسيرتوس. هنا خطرت لي واحدة من أفكاري الخاطفة الفذة. قلت: وأنت يا ميديا، لا بد أنك تعرفين أن أختنا يمكن أن تحمل وزر موت أخيها بأشكال مختلفة.

هنا شحب لونها، رأيت ذلك.

ياسون لميديا:

امض عبر الغرف العالية للأثير السامي،

إشهدي أنه حيث تمضين، لا توجد آلهة.

سنيكا، ميديا

ميديا

ابسيرتوس، يا أخي، أنت لست ميتا إذن، إذن عبثا التقطتك عُظَيما فعُظيما في ذلك الحقل الليلي، الذي نثرتك فيه النساء المجنونات، أخي المقطع المسكين. تبعتني، جلِدا، كما لم أعرفك، ولكن كيف عرفتك يا ترى، لقد جمعتُ أعضاءك المقطعة ثانية، جمعتها ثانية في قاع البحر، ساقا فساقا، وتبعتني، ككيان من هواء، كإشاعة. لم ترد أبدا أن تكون مقتدرا، أنت الآن مقتدر. مقتدر بما يكفي لتلحق بي، في الهواء أو في قاع البحر، هذا ما يعتقدونه على أية حال، ليس بريسبون وأغاميدا فقط، اللذان يتمنيان ذلك بإلحاح، لو يكون أيضا، رأيت الهم في عينيه. أنا على العكس، لم أصب بالذعر حين مر بي ما يسبق الإشاعة، لم يقل لي المرء ذلك مباشرة، همس به خلف ظهري. سمعت اسمك، منذ زمن طويل، اسمك ثانية يا أخي، ثم اسمي، وحين استدرتُ بسرعة، صادفت وجوها مغلقة، نظرات غاضة. عرف الكل عداي، أخيرا أوضحت لي ليسا: يدعون أنني قتلتك أنت أبسيرتوس، أخي. ضحكتُ. لم تضحك ليسا. نظرتُ في وجهها، ثم قلت، ولكنك تعرفين كيف كان الأمر حقا. أعرفه، قالت ليسا، وسأعرفه دائما. هذا يعني، لن يعرف الجميع دائما ما كانوا قد عرفوه. لم أكن قد فهمت بعد، حتى أنني شعرت ببعض التخفف، أن شيئا حدث، ربما أذاب الضجر الذي تراكم فيّ عبر السنوات في كورينث مثل راسب كدر، مرة أخرى.

كورينث وكل ما كان قد حدث وما حدث فيها لم يكن يعنيني. كانت كولخيسنا لي مثل جسدي مكبرا، شعرت بكل انفعال من انفعالاته.

أفول كولخيس حدسته مثل مرض متسلل فيّ بالذات، فرت الرغبة وفر الحب، لك قلت ذلك يا أخي الصغير، كنت متفهما جدا، ومرهفا جدا. حين قرفصنا مع أمنا، مع الاخت كالكيوبا، مع ليسا، وقلّبنا مهمومين ما حدث لكولخيس يمنة ويسرة، كنت، ولم تزل طفلا، كنت منتبها. لا شيء كان يعذبني مثل فكرة أن تكون قد تكهنت أن الأمر سيكلفك حياتك، حين فاجأك أبونا، الملك، وفاجأنا بهذه الخطة الملعونة. حين لم يخطر لنا شيء نستطيع أن نقدمه ضدها، عدا عدم ارتياح عميق. لقد قللنا من شأنه، ملكنا وأبينا الهرم العاجز، جمع كل نتفة قوة كانت لا تزال فيه في نقطة واحدة: أن يبقى في السلطة، وبذلك على قيد الحياة. لم نكن قد عرفنا هذا النوع من الحيلة المصممة على كل شيء. كنا عماة يا ابسيرتوس.

حتى أنت فهمت أن الطريقة التي يحكم بها اييتس كولخيس أثارت دائما غضب مزيد من الكولخيسيين ضده، غضب أمنا أيضا، وغضبي، أنا كاهنة هيكاتا، التي أصبح معبدها دون تدخل مني ملتقى للساخطين، خاصة الناس الشبان، أنت يا أخي الصغير، كنت دائما حاضرا. اصطدموا بجمود اييتس، ببذخ البلاط الذي لا نفع فيه وطالبوا الملك أن يستخدم كنوز البلاد، ذهبنا، لينهض بتجارتنا، يسهل الحياة البائسة لفلاحينا. أرادوا أن يتذكر الملك وعشيرته واجباتهم التي أسندت إليهم من القدم في كولخيس. آه ابسيرتوس! ما اعتبرناه نحن الجهلة فخامة! أعرف منذ وجودي في كورينث ماهو البذخ، الذي لا يبدو أنه يزعج أحدا هنا. حتى الفقراء في القرى وفي أطراف المدينة تتهلل وجوههم حين يتحدثون عن الاحتفالات الكبيرة

في القصر، التي عليهم أن يقدموا من أجلها مواشيهم وحبوبهم، دون أن يظفروا أنفسهم حتى ببريق هذه الاحتفالات.

كنا في كولخيس مسكونين بأساطيرنا الموغلة في القدم، التي حكم بلادنا فيها ملكات وملوك عادلون، سكنها أناس عاشوا في وفاق فيما بينهم، قسمت الملكية بينهم بالتساوي، فلم يحسد أحدهم الآخر أو طمع في ملكه أو حياته. حين رويت، غير عارفة، في الفترة الأولى في كورينث عن حلم الكولخيسيين هذا ظهر على وجوه مستمعي نفس التعبير دائما، عدم التصديق ممتزجا بالإشفاق، وفي الأخير سأم ونفور، حتى أنني كففت عن أن أوضح أن هذه الصورة كانت بالنسبة لنا نحن الكولخيسيين واضحة أمام أعيننا، فجعلناها معيارا لحياتنا. رأينا أننا ابتعدنا عنها أكثر فأكثر من سنة لأخرى، وكان ملكنا العجوز المتصلب أكبر عائق. كانت الفكرة قريبة، حتى أن ملكا جديدا كان يمكن أن يحقق تحولا. جاءت الفكرة الشجاعة من النساء اللاتي ينتمين لحلقتنا، نصبُ كالكيويا، أختنا ملكة جديدة. لقد نقل إلينا أنه كانت ثمة نساء ملكات في كولخيس في الأزمنة السابقة، ولما كنا بصدد أحياء تقاليد قديمة، ذكرتنا بعض الطاعنات في السن أنه لم يسمح مرة للملك في كولخيس أن يحكم سوى سبع سنوات، ثم في أقصى الأحوال سبع سنوات أخرى، ثم يكون وقته قد انتهى، وكان عليه أن يترك منصبه لخليفته. قمنا بالحساب: كنا في السنة السابعة من الفترة الثانية لحكم الملك اييتس، وكان ثمة من هو حسن النية بيننا، فاعتبر تنحي اييتس طوعا ممكنا، حين يقنعه المرء فقط أنه بذلك يخضع لقانون كولخيسي قديم.

كم كنا أغبياء. عمي. اييتس أيضا كان يعرف القصص القديمة، بالطبع بلَّغ بما كنا ننوي. لقد استهنا به. حين ظهرت عنده مجموعة الكولخيسيين التي أرسلناها إليه، كان مستعدا. بدلا من أن يتلقى منهم إبلاغا بأن فترة حكمه انتهت، فاجأهم بحكاية مسهبة للتقليد القديم الذي يقضي بأنه لا يسمح للملك أن يحكم أكثر من سبع سنوات مرتين، وبالايضاح المتعجرف بأنه سيخضع لهذا التقليد، وأكثر من ذلك سيفعل بالضبط ما كان قد فعله أسلافه: سيتخلى يوما واحدا عن مقامه، وسيكون في هذا اليوم إبنه وخلفه في المستقبل، ابسيرتوس، ملكا في كولخيس. هذا أكثر من مرضٍ لتقاليد شعبنا، حيث أننا لم نمض بعيدا جدا فنطالب بوجوب أن يضحى حسب الطقوس القديمة إما به، الملك العجوز، أو نائبه الشاب.

تحول الناس من مطالبين إلى ملتمسين، خانتهم اللغة وانسحبوا محرجين. ربما كان بوسعنا أن نرد بيقظة، لو لم يكن بحارة الآرغو قد تفرقوا في هذه الأيام بالذات في كل مكان، وكانوا سيعترضوننا أينما ذهبنا، كان علينا أن نعمل لإشغالهم. كان ينبغي ألا يلاحظوا شيئا. لم يلاحظوا شيئا. استغل الملك الوضع، فاوض بسرعة وذكاء. تخلى عن منصبه في طقس مناسب، غير مبالغ فيه، ونصبك، أخي المسكين، ملكا. لا زلت أراك، متلفعا بثياب ثمينة، ضئيلا على العرش الكبير، وإلى جانبك، متواضعا، في ثياب بسيطة، اييتس الذي لم يعد ملكا. لم أفهم ما حدث، هذا عذري الوحيد، لكن الضيق الذي قرأته في وجهك انتقل إلي.

لا أعرف حتى الآن بالضبط كيف فعلها. ربما لم يكن عليه أن يفعل

الكثير. ربما لم يكن في نيته منذ البداية أكثر مما قاله لنا، وتشكلت لديه فكرة قتلك، أو تركك تقتل فيما بعد وحسب، حين أصبح واضحا لديه أن تصرفه الملئ بالحيلة لن يحل مشكلته. ربما لم يكن حزنه على ابنه فيما بعد تظاهرا. لو كان كلاهما ممكنا، أن يبقى في الحكم ويحتفظ بك، فإنه كان يحب أن يكون له كلاهما يا أخي. لا بد أن تكون اللحظة التي عرف فيها أن الحصول عليهما معا غير ممكن قد أرته نجوم الظهر، لكنه اختار بعد ذلك، كما يتفق مع طبعه، السلطة، والإرهاب كوسيلة لها.

ربما أعطى أحد المقربين لديه إشارة للنساء، هذه المجموعة الخيالية من النسوة، اللائي كان معنى حياتهن أن يصلن إلى جعلنا نعيش في كولخيس في كل تفصيل صغير مثل أسلافنا. لم نأخذهن بجدية، كان ذلك خطأ، فجأة تشكل في كولخيس تقسيم للقوى، كان في صالح هاته النسوة، فاعتبرن أن ساعتهن قد حانت. مسرورات بالاستخدام الأخير للقوانين القديمة من قبل الملك، أردن أن يرين جميع التبعات المفروضة تنفذ؛ حيث كان يمكن لواحد فقط أن يعيش، الملك أو نائبه، وحين انتصف الليل، أنهيت يا أخي يومك كملك، هنا اقتحمن مخدعك من خلال مدخل لم يحرس ويا للغرابة في تلك الليلة، وهو ما عرفنه ويا للغرابة، حيث استطعن أن يجدنك في الحمام دون حماية ويقتلنك وهن يغنين أغانيهن المرعبة. هكذا كانت التقاليد في الأزمنة القديمة، التي استندنا نحن أيضا إليها، لأننا وعدنا أنفسنا منها بفائدة. ومنذ ذلك الوقت بقيت لي القشعريرة من هذه الأزمنة القديمة ومن القوى التي تطلقها فينا والتي لا نستطيع أن نكون سيدها

بعد ذلك. في وقت ما لا بد أن يكون قد أصبح قتل نائب الملك، الذي أيده الجميع، هو نفسه أيضا، في وقت ما لا بد أن يكون ذلك قد أصبح قتلا، وإذا كان موتك الفظيع قد علمني يا أخي، فقد علمني هذا، أننا لا نستطيع أن نتصرف بنتف الماضي كما نحب، نصلها ببعضها أو نمزقها، كما يناسبنا في تلك اللحظة. من خلال كوني لم أمنع هذا، بل أنني نقلته، أسهمت في موتك. كانت أغاميدا تعني شيئا آخر، حين اتهمتني به قبل وقت قصير، شحب لوني حقا. يشحب وجهي كلما فكرت فيك يا أخي، وفي هذا الموت الذي دفعني خارج كولخيس. ليست لدى أغاميدا فكرة. البغضاء تسبب العمى. ولكن لماذا تكرهني. لماذا أكره.

أتراهم يحسون بعدم إيماني، بفقداني الايمان. أتراهم لا يحتملون هذا. حين ركضت في الحقل الذي نثرن فيه أعضاء جسمك المقطعة، النسوة المجنونات، حين ركضت مع حلول الظلمة معولة في هذا الحقل وجمعتك، أخي المعذب المسكين، قطعة قطعة، ساقا فساقا، هنا توقفت عن الأيمان. كيف يمكن أن نعود بهيأة جديدة إلى الأرض. لماذا ستجعل أعضاء منثورة في الحقل لرجل ميت هذا الحقل خصبا. لماذا تطلب الآلهة منا أدلة على العرفان والخضوع على الدوام، تدعنا نموت لتبعثنا ثانية على الأرض. لقد فتح موتك عيني يا أبسيرتوس. وجدت أول مرة عزاء في أني لن أعيش إلى الأبد. هنا استطعت أن أتخلى عن هذا الإيمان المولود من الخوف، أصح من هذا، أعاد إلى رشدي.

لم ألتق بعد أحدا أستطيع أن أتحدث معه حول هذا. هنا وجدت واحدا مثلي لا يؤمن: أخاماس، لكنه يقف في الجانب الآخر. نعرف

الكثير عن بعضنا. أقول له بعيني فقط، أنني أتبين عدم اكتراثه المهترىء جدا، الذي لا يستثني سوى شخصه، يقول لي بالعينين فقط، أنه يجد قسري المهترئ للتدخل في شؤون الآخرين غير ناضج، مضحكا، وفي الفترة الأخيرة خطرا. إنه يحذرني، بالعينين فقط، بينما أقف أنا دون فكرة. أريد أن أعرف الآن.

ذهبت مع ياسون، لأنني لم أستطع البقاء في هذه الكولخيس الضائعة الفاسدة. كان هروبا. الآن رأيت نفس المسحة من الإستعلاء والخوف اللذين أظهرهما أبونا أييتس في الفترة الأخيرة، في وجه كريون ملك كورينث. لم يستطع أبي أن ينظر في عيني خلال طقوس الموتى التي أقيمت لك، إبنه الذي ضحي به. لا يشعر هذا الملك هنا بتأنيب ضمير حين يؤسس سلطته على الشر، إنه ينظر في وجه الكل بوقاحة. منذ أن أخذني أخاماس معه، عبر النهر إلى مدينة الموتى، حيث يدفن الكورينثيون الأغنياء في مدافن مؤثثة بفخامة. منذ أن رأيت ما يُزودون به ليقطعوا الطريق إلى مملكة الموتى، وكذلك أيضا كي يدفعوا ثمن دخولهم فيها، نقودا، حليا، أطعمة، وحتى خيولا، وأحيانا خدما أيضا، منذ ذلك الوقت لا أستطيع أن أرى في هذه الكورينث الرائعة بأكملها سوى الصورة المضادة الزائلة لمدينة الموتى الأبدية تلك، ويبدو لي أنهم يحكمون هنا أيضا، الموتى. أو يحكم الخوف من الموت. وأتساءل، أما كان علي أن أبقى في كولخيس.

لكن كولخيس قد تبعتني الآن. عظامك يا أخي، ألقيتها في البحر. في بحرنا الأسود الذي أحببنا والذي، أنا متأكدة من هذا، كنت ستريده قبرا لك. على مرأى من سفن كولخيس التي لاحقتنا، وفي مواجهة أبينا

أبيتس وقفت على "الأرغو" وألقيتك في البحر قطعة قطعة. هنا أوعز أبيتس إلى الاسطول الكولخيسي بالتراجع، رأيت الوجه المألوف للمرة الأخيرة، متحجرا من الخوف. تسربت هذه الصورة إلى أعضاء بحارتي أيضا: إمرأة تلقي وسط الصراخ الوحشي عظام ميت حملتها معها، في البحر في مواجهة الريح. يرى ياسون أنني لا ينبغي أن أستغرب، إذا ما خطرت لهم الصورة الآن ثانية وجعلتهم لا يعرفون ما ينبغي أن يفكروا فيه، حتى أنهم لم يريدوا أن يتقدموا للشهادة في صالحي. هكذا أسر إلي. سألته ما إذا كنت قد قتلت أخي، قطعته ثم أخذته معي في رحلتي في كيس من الفراء؟ أعرض عني، ياسوني الطيب. بقي مدينا لي بالجواب.

كل هذه السنوات يا أخي، لم أستطع أن أحلم بك. الآن استيقظت مع الذكريات أحلامي أيضا. ليلة فليلة يزيد البحر مرتفعا مرة أخرى، ليلة فليلة يبتلع عظامك مرة أخرى، ليلة فليلة أصب أخيرا الدموع التي بقيتُ مدينة بها لك. وليلة فليلة تتحسس رؤوس أصابعي العظيمات الدقيقة التي وجدتها في تلك المغارة تحت القصر، الجمجمة النحيفة، لوح الكتف الطفولي، العمود الفقري القابل للكسر. ايفينوي. إنها أقرب إلى أن تكون أختك مما استطعت أنا أن أكونه في أي وقت. حين أفيق وعيناي ممتلئتان بالدموع، لا أعرف أكنت قد بكيتك يا أخي، أم بكيتها.

أعرف، حاول البحارة أن يقنعوا ياسون أن يسلمني لأبي. لقد ألّبتُ الاسطول الكولخيسي ليقتفي أثرهم بسبب هروبي غير المدروس. أوشكوا أن يلقوا بي في البحر، لينتشلني المتعقبون، أبناء كولخيسي.

بقي ياسون شجاعا. كنت تحت حمايته. كان جديدا على أن أكون تحت حماية رجل. كان حائرا وقلقا. بدأ صحبه يتحدثون عن التكفير. سيكون مفيدا لو فعلنا شيئا لنهدىء الآلهة بشأن مقتل ابسيرتوس، وإذا ما أدخلنا في ذلك هربي من كولخيس ومساعدة ياسون لي في ذلك. دافعت عن نفسي ضد هذا الطلب الذي يخفي اعترافا بالذنب، لكني رأيت كيف كان ياسون يحتاج إلى هذا التكفير بإلحاح. كنا في ذلك الحين قريبين من الجزيرة التي تعيش فيها خالتي كيركا منذ سنوات طويلة. ذكرتني ليسا بهذا، فجأة تذكرت أنا أيضا خصلات شعر حمراء منكوشة، لم لا في الواقع، فكرت، لم لا أرى ثانية هذه القريبة التي انتشرت سمعتها كساحرة بعيدا خارج جزيرتها. كان البحارة أيضا قد سمعوا بها ورفضوا أن يذهبوا معنا أنا وياسون، قالوا: كيركا تسحر الرجال إلى خنازير. إتجهوا إلى خليج خفي وأنزلونا هناك.

إلتقينا المرأة على الشاطيء، كانت تغسل شعرها الأحمر الناري وثوبها الأبيض في البحر، نظرنا إلى وجهها المتغضن المخيف، بدا أنها كانت تعرف من القادم. كانت تنتظرنا، قالت ونحن ذاهبون إلى مجموعة البيوت الخشبية في عمق الجزيرة التي كانت تسكن فيها مع مجموعة من النساء، إنها حلمت هذه الليلة بسيول من الدم بلغتها هي أيضا، وكان عليها أن تنظف نفسها في البحر من هذا الدم. صمتنا، كما يفعل أولئك الذين يأتون للتكفير، قرفصنا أمام موقدها ومسحنا وجوهنا بالرماد، في ذكراك يا أخي. ربطت كيركا رباط الكاهنات الأبيض حول جبينها وتناولت العصا في يدها، ثم أرادت أن تعرف،

أي إراقة دم علينا أن نكفر عنها، قلت، موت الأخ. قالت كيركا بصوت محايد، أبسيرتوس. أومأتُ برأسي. قالت، يا للتعيس. إنتابني حزن لا يمحى، حزن يستيقظ الآن ثانية، وكأن ذاكرتي تنشق وتكشف هذه الكسر من الذكريات، كما تدفع الحجارة في الحقول كل سنة إلى السطح.

نثرت علينا كيركا دم خنزير صغير ذبح للتو وتمتمت إلى جانب هذا بالتعويذة، يجب أن ينظف الدم ذنب إراقة الدم. جعلتنا نشرب من عدة أقداح. غفا ياسون على أثر ذلك. أما أنا فقد أصبحت شديدة اليقظة. كان لدينا ساعتان من الوقت. بدا لي الوقت بلا نهاية، قالت لي كيركا أشياء كثيرة، بعد أن رويت لها لماذا كان علي أن أغادر كولخيس. منحتني الشعور بأنها كانت السابقة وأنني اللاحقة، فقد طُرِدت هي أيضا حين وقفت مع نسائها في وجه الملك بجدية، حرضوا الناس ضد كيركا، أتهموها بجرائم ارتكبوها هم أنفسهم، واستطاعوا أن يلصقوا بها سمعة الساحرة الشريرة، أن يحرموها من الثقة، حتى أنها لم تعد تستطيع أن تفعل شيئا، أي شيء. آخر إشفاء لها، هذا ما لم أكن قد عرفته أيضا، يا أخي، حققته لأمي ولك، كدت تختنق أثناء الولادة، إذ لم تعد لأمي القوة لتضغطك خارجا منها. هنا أدخلت كيركا يديها النحيفتين القويتين فيها، أدارتك، ليتمكن رأسك من الخروج أولا، وأخرجتك، ثم حاولت ليلة كاملة أن توقف نزيف ايديا بكل الوسائل التي عرفتها والتي نقلتها إليّ. كانت إرادة أمي على الحياة تكاد تنطفئ، هنا وضعتك هي، كيركا، على صدرها، حزمة ضئيلة، وصرخت فيها، سيموت هذا الطفل، إذا ماتت، أمي،

بالنزيف. بعد وقت قصير توقف النزيف. موتك يا أخي لامسها من قريب. كانت قد تخلت عن كولخيس.

كانت أكثر خبرة منا. لم يكن عليها أن تغادر جزيرتها، جاء المرء إليها، مرت سفن بلدان كثيرة في هذا الجزء من البحر المتوسط، في حانات الموانىء في كل السواحل جرى الحديث عن كيركا. سألتني، أتعرفين عما يبحثون، يا ميديا؟ يبحثون عن إمرأة تقول لهم إنهم أبرياء؛ إن الآلهة، التي يتضرعون إليها صدفة، تدفعهم في مشروعاتهم. وإن أثر الدم الذي يجرونه خلفهم، يعود لكونهم رجالا وهو ما قررته الآلهة. أطفال كبار مرعبون يا ميديا. هذا يزداد، صدقيني. هذا ينتشر. صبيك هذا الذي تعلقت به أيضا، سيتشبث بك قريبا. الشر يكمن فيه. لكن هم جميعا لا يتحملون اليأس. روضونا من اليأس. لا بد أن يحزن واحد ما، أو واحدة. لو أنها امتلأت بضجيج المجازر والعويل وحسب ونهنهة المهزومين، لبقيت الأرض متوقفة ببساطة، الا تعتقدين هذا.

كيف استطعت أن أنسى هذا طويلا هكذا. الآن فقط يخطر لي، رجوت كيركا أن تسمح لي بالبقاء عندها، عندها وعند النساء. عشت طوال طرفة عين إلى جانبها، في هذه الجزيرة، تحت هذا الضوء الإلهي. جاءت السفن وذهبت. جاء رجال وذهبوا، وقد وجدوا عزاء، شفاء، أو لم يجدوا. فكرت كيركا بالشيء نفسه في نفس اللحظة. ثم قالت، لا يجوز لي البقاء. إنني واحدة من اولئك الذين يعيشون وسط هؤلاء الناس، والذين خبروا أين نحن معهم في الحقيقة، والذين كان عليهم أن يحاولوا تحريرهم من الخوف من أنفسهم، الذي يجعلهم

متوحشين جدا وخطرين. حتى ولو لدى هذا الواحد هنا فقط، لدى ياسون.

كيف استطعت أن أنسى هذا كله. نعم، قالت كيركا مجيبة على سؤالي وضاحكة فوق ذلك، لقد حدث أن طردت قطيعا من الرجال من الجزيرة كخنازير، فكرت أنه ربما ساعدهم هذا في ومضة من معرفة الذات. هل تعرفين يا ميديا، قالت لي كيركا، هل تعرفين ماذا أعتقد؟ سأصبح مع الزمن شريرة حقا. سأصبح شريرة شيئا فشيئا وأقف على الشاطىء لاعنة فقط ولا أدع أحدا يطأ الجزيرة، لا ينسرب كل الشر وكل الوضاعة والحقارة التي يصبّونها علي، ببساطة مثل الماء عني.

كيف نسيت هذا. كيف نسيت أنني أنا أيضا تمنيت أن أكون في اللحظة الصحيحة شريرة، شريرة حقا. ولكانت الآن هي اللحظة الصحيحة يا أبسيرتوس.

للأسف أنا فقط مضطربة. لأن كل شيء شفاف، يمكن رؤيته بسهولة. لأن الأمر لا يهمهم. لأنهم يستطيعون أن ينظروا في وجهي بجبهة من حديد، وهم يكذبون، يكذبون، يكذبون. عدم القدرة على الكذب هو تعويق كبير. تخطر لي لعبة طفولتنا يا أخي، أردنا أن نتعلم الكذب. فاز من استطاع منا أن يطرح أمام أمنا أو أبينا كذبة معينة مخلصا حتى أنهم صدقوه. أُبعِدنا غالبا ضاحكين، لم يكن كلانا جيدا في هذه اللعبة بوجه خاص. هؤلاء هنا يا أبسيرتوس أساتذة في الكذب، في الكذب على أنفسهم أيضا. استغربت منذ البداية التصلبات في أجسامهم. انني لم أحس بشيء حين كنت أضع يدي على رقبتهم،

ذراعهم، بطنهم، لا جريان، لا تدفق. لا شيء سوى الصلابة. كم احتجت من الوقت لأذيب هذه الصلابة، كم كانوا غير راغبين، كيف قاوموا. كيف قاوموا ضد المشاركة في المشاعر. كيف ذابوا بعدئذ في الدموع في بعض الأحيان، رجال أقوياء. كيف أنهم لم يعودوا غالبا، لم يدَعوني أذهب إليهم، لأنهم كانوا يخجلون. كان علي أولا أن أتعلم إدراك ذلك، ياسون ساعدني فيه.

كان رجلا رائعا. مشيته، وقفته، حركة عضلاته في المناورات على السفينة، كان علي أن أنظر إليه دائما، وحين جرح بعض بحارته من الكولخيسيين، قمنا أنا وياسون بالعناية بهم، كان يعرف، عرف أيضا المسكات والأدوية. لم أكن قريبة إليه كما في تلك الليلة، حيث عملنا يدا بيد، تفاهمنا دون كلمات. وهكذا لم يعد لدي مانع لأصبح زوجته، وليس فقط لأن الملك في كوركيرا، حيث طلبنا اللجوء، كان سيسلمني إلى الاسطول الكولخيسي الثاني الذي كان لديه أمر بعدم العودة إلى الوطن بدوني. وهكذا نفذنا في الليلة نفسها طقوس الزفاف المفروضة ونمنا معا، في مغارة ماكريس، الإلهة العجوز، التي وضعتُ نفسي تحت حمايتها مخلصة، ووضعت حليي على مذبحها. لم ألبس حليا منذ ذلك الوقت، كان هذا نذري للإلهة، فهمتني. تخليت عن مرتبتي. كنت إمرأة عادية في يدها. وهكذا منحت نفسي لياسون، دون سند، وشددته من خلال ذلك إلي. لا زلت أتذكر كيف أمسكت بكتفيه حين كان ينام فوقي، كيف تحسست كل عضلة، توترها، ارتخاءها السعيد. وكيف شعرت بالألم حين تصلب كتفاه مثل أكتاف رجال كورينث الآخرين شيئا فشيئا. كيف كف عن أن يعاني بسبب ذلك.

أصبح رجلا في البلاط. من أجلكم، قال. من أجلك وأجل الطفلين. ليتركوك هنا. هنا قال من أجلكم، لم يعد يقول من أجلنا، كان ذلك القطع. ألمٌ لا يريد أن ينتهي.

يستطيع الملك كريون أن يحاول إهانتي أو إخافتي، بأن يستخدم سحنته المتحجرة، يمر بي دون تحية أو نظرة. لا أكترث بهذا. يريد أخاماس أن يقنعني بوجوب الكف عن البحث عن هذا الميت الذي عثرت عليه في المغارة، ثم ستنام إشاعة كوني قتلت أخي من نفسها ثانية؛ هنا أقول، من أين له أن يعرف أن هذا الميت كان رجلا. فيصبح شاحبا ويصرف أسنانه، حتى تبرز عظام وجنتيه، ويسألني مهددا: ماذا تعرفين يا ميديا. أصمت.

ولكن حين يسألني ياسون السؤال ذاته وهو فاقد رشده من الخوف والهم، وحين يحاول هو أيضا أن يخرسني، فإنني أكترث. فأقول له ما أعرف: أنه توجد هنا في المغارة عظام فتاة، طفلة تقريبا، في سنك يا أخي. وانها عظام إبنة الملك، الإبنة الأولى للملك كريون والملكة ميروبا، الملكة الخرساء، التي تحدثت إلي حين زرتها في مخدعها المظلم واحتجت نعم أو لا فقط للجواب على سؤالي الذي كان في أثر الحقيقة. جاء الجواب من شفتين نحيفتين. أمر بذلك، قالت ميروبا. هو الذي أراد أن يزيحها من الطريق، إيفينوي. كان خائفا من أن ننصبها بدلا منه. وهذا ما أردنا أيضا. أردنا أن ننقذ كورينث.

البرد الذي أحسسته، لم يعد يغادرني. واحدة من الخادمات ذوات العظام البارزة رافقتني إلى الخارج. تهتُ في ساحات القصر، الحجر في الصدر، والذي لن أتخلص منه. أرادوا أن ينقذوا كورينث. أردنا

أن ننقذ كولخيس. وأنتُما، هذه الفتاة وأنت يا أبسيرتوس، كنتما الضحية. إنها أختك أكثر مما يمكن أن أكونه أنا أبدا.

كان علي ألا أترك كولخيس. ألا أساعد ياسون في الحصول على فروته. ألا أقنع جماعتي ليأتوا معي، لا أتجشم رحلة العبور السيئة هذه، لا أعيش كل هذه السنوات بربرية نصف مخافة، نصف محتقرة في كورينث. الطفلان. نعم ولكن ما الذي سيجدانه أمامهما. على هذه الصفيحة التي نسميها الأرض، لم يعد ثمة شيء آخر، يا أخي الحبيب، سوى منتصرين وضحايا. والآن ينبغي علي أن أعرف، ما الذي سأجده حين أُدفع فوق حافتها.

حالما تتساوى النساء معنا،
يكنّ متفوقات علينا.

كاتو

أخاماس

آه من هذه المغفلة. إنهم المغفلون الذين سيلقوننا في التهلكة. أن يوجد شيء كهذا، فهو ما لم أظنه ممكنا. حقا سبقتها إشاعاتها التي كان ينبغي أن تثير الفضول، بحارة جاؤوا إلينا في اليابسة، صادفوا الأرغو وتلك المرأة أيضا، في ميناء ما من الموانيء المحيطة ببحرنا الكبير، جُرفت إلى ساحلنا جميع ثرثرات حانات الميناء، لم أعرف ما الذي أثار الإهتمام في تلك الأيام أكثر من مغامرات البحارة ولا ما تنطع حوله المرء أكثر مما فعل حول تلك المرأة التي سميت بعد وقت قصير الجميلة المتوحشة. أعرف الناس، هذا ما يحق لي قوله، أعرف حاجاتها الغريبة التي لا تكبح، أعرف خيالها الجامح وجنوحها أن تأخذ هذا الخيال على أنه حقيقة لا نزاع فيها، ولكن لا بد أن يكون لهذه المرأة شيء جعل أذهانهم تتقد ولم يتركهم.

الملك كريون، الذي يعرف مع أبناء عمومته عروش البلدان المحيطة تنبأ بما سيحدث في وضوح إلى حد كبير. أنه لن ينفع ياسون الاستيلاء على الفروة الذهبية، لأن عمه، المغتصب، لن يتخلى له عن العرش. أنه لن يجد أحدا يقاتل من أجل ميراثه. أن عليه باختصار أن يبحث عن مكان له ولزوجته وكل من معها، يستطيع أن يجد فيه مأوى. هذا المكان، قال الملك كريون في مجلس الشوخ سيكون كورينث. لم يعرف ابن الأخت هذا، لكنه استخبر عنه، قال أن التقارير ليست في غير صالحه. التربية التي تلقاها هذا الياسون لدى شايرون في الغابات التيسالية لا تقارن حقا بتلك التي يتمتع بها ابن ملك هنا

لدينا في القصر، إلا أنها شكلت لديه مهما يكن قدرات معينة، وكبحت أخرى، شذبته. أما الباقي فنعتقد أننا قادرون أن نربي فيه شابا صالحا للقبول بيننا. أومأنا جميعا برؤوسنا. مهما يكن لم يكن في هذا البلاط خليفة ذكر، إبنة فقط، غلاوكا المسكينة. كان للكهنة المتنبئين أيضا نصيبهم في التفكير، أخفوا عيونهم وتمتموا بأفواههم بالموافقة. حين ذهبوا، استبقاني كريون. أرضى هذا غروري، ولكن كان أحب إلي لو لم يميزني أمام جميع العيون ويثير حسد الآخرين. ما رأيك يا أخاماس. لقد اعتاد أن يجعلني موضع الثقة، وكان علي في كل مرة أن أكتشف من جديد عما إذا كان يريد مني وضوحا أم مجرد تأييد لرأيه. قلت، شاب في بنية ياسون يناسب قصر كورينث. حسنا، حسنا، ولكن ماذا غير ذلك؟ قلت، هنا ستكون هذه المرأة أيضا يا كريون. أعرف، قال كريون. سيراها المرء، أليس كذلك؟ هو ذاك، قلت. علي أن أوعز باتخاذ ما هو ضروري لوصول ياسون وجماعته.

بعد ذلك بأسابيع قليلة، في يوم خريفي عاصف مقبض دخلت ميناءنا "الأرغو" وسفن الكولخيسيين التي رافقت ميديا. وجهتهم سفينة إرشاد تابعة لاسطولنا، كان بعض موظفي القصر من الدرجة المتوسطة مكلفين باستقبالهم. وقفت جانبا بعض الشيء وانتظرت المرأة. جاءت يسندها ياسون من مرفقها، هبطت الجسر إلى الأرض بخطوة حرة ثقيلة، كانت حاملا في أسابيعها الأخيرة، شاحبة، منهكة، عيناها مجوفتان، كانت الرحلة في بحر هائج مرهقة لها، وكانت النساء اللاتي يقمن على رعايتها قد خفن أن تلد على هذه السفينة المتدحرجة الجامحة. رأيت أنها كانت جميلة، وفهمت ياسون. ثم

وقفت أمامي، فرأيت عينيها، الومضات الذهبية في القزحية الخضراء. كانت عيناها ممتلئتين حياة ويقظتين. ما دامت قدما المرأة باردتين لا تحدث الولادة، قالت، كانت هذه الكلمات الأولى التي سمعتها منها. إلتف الكولخيسيون حولها مثل دجاجات أخافتها العاصفة فالتفت حول الحاضنة، مجموعة قاتمة منكمشة على الساحل الكئيب الذي تسابقت فوقه الغيوم على ارتفاع واطيء. فكرت: منفيون، لا ينبغي أن يحدث هذا لنا أبدا.

ذكر لي ياسون أسماء البحارة القليلين الذين كانوا لا يزالون معه، قدم شكره بتهذيب على القبول الذي سيحصل عليه المستجيرون عندنا. كان علي أن أذكره، أنه كان قد نسي أن يقدم لي زوجته. أربكه هذا بشكل مفزع. ضحكت ميديا. من عينيها. كان ذلك ضحكها الذي يعرفها المرء منه. لم أسمع هذا الضحك منذ وقت طويل. أعرف أننا نحن الذين خنقناه، ينبغي أن يفعل المرء للأسف بعض الأشياء التي لا تعجبه هو نفسه.

ولدت طفليها في نفس الليلة، كانا توأمين، مهلا، يجب أن أقول، إنهما توأمان، صبيان، صحيحان وقويان، أحدهما أشقر مثل ياسون والآخر أسمر ومجعد الشعر مثلها. ضحكت من هذا دون تحفظ. لم تكن الولادة صعبة. أحيانا سمعنا نحن الذين كنا منهمكين في الممر، النساء اللاتي كن مع ميديا في غرفتها يثرثرن، وحتى يغنين. سأل خدم القصر ليسا عن الفرح غير المعتاد، فأجابت، الولادة عيد. هكذا ينبغي أن يحتفل المرء بها أيضا. لا أستغرب أن بعض نسائنا، كبيرات المقام أيضا، يدعن الكولخيسيات يعلمنهن طريقتهن في

الولادة، ولكن لا يدع أطباؤنا المتعلمون تعليما رفيعا فن الإشفاء للكولخيسيات يتسرب إلى القصر. ولهم الحق في هذا، طرق الأشفاء للكولخيسيات لا تناسبنا. حين يولد طفل لديهم، يكاد المرء يفكر، إنها مهمته الأولى في هذا العالم، ومن أجل هذا فقط يستحق كل الحب والرعاية. قد يكون هذا جميلا وجيدا، غير أنه بدائي، ولا معنى بعد كل هذه الجهود التي بذلها المرء ليتحرر من مغارة التفقيس الضيقة هذه، التي قد تكون دافئة، أن يعود إليها في أول فرصة. النساء، لا بأس. يستطيع المرء أن يلاحظ لدى البعض رغبة غريبة في القرفصة مع الغريبات، كما لو أن قسرا قد رفع عنهن، النظرات المتأملة عن بعد التي بدأن يتفحصن بها أزواجهن. كان هذا بالنسبة لي في الواقع مسليا. فلست صديقا لهؤلاء الرجال المستقيمين. لست أيضا صديقا لهاته النسوة اللائي يمنحن أنفسهن ببرود. لا أحب هذه الصداقات اللزجة. أغاميدا تشعر بذلك. إنها تشبهني. والآن ستنتهي قريبا على أية حال شهرة ميديا الخفية كشافية. من سيذهب بعد ذلك إلى إمرأة قتلت أخاها. يجب أن يفعل المرء بعض ما لا يعجبه.

في البدء كانت أليفة، وكان لهذا جانبيته دون ريب. بالنسبة لي كان طريفا أن أرى مدينتي بعينيها. لماذا، استطاعت أن تسأل، لماذا يوجد كريونان، واحد متصلب في صالة العرش، الآخر متبسط على المائدة، حين نكون فيما بيننا. لم يخطر ببالي أن الأمر يمكن أن يكون مختلفا. يومذاك تناول الملك طعامه مع ياسون وميديا وأنا، كان عندها يحس بالارتياح وتخلى عن ضبط النفس. أحيانا كانت معنا غلاوكا المسكينة، والتي انتابها إعجاب متوتر بميديا. لم يهتم أبوها، الملك،

بها. تنتشر الإشاعة بأن ميديا عالجت صرعها سرا، وبالفعل بدت غلاوكا تتماثل للشفاء. مؤسف أن علي أن أمنع هذا. حاولت أن أوضح لميديا جوابا على أسئلتها البريئة، أن كريون كملك ليس كريون أو أي رجل آخر، إنه ليس شخصا على الإطلاق، وإنما منصب، إنه الملك. فقالت، المسكين. قبل وقت قصير فقط قالت لي أغاميدا، تفكر ميديا في ذلك بأبيها، بملك كولخيس، إمرأة غريبة الأطوار.

انسقت لعاطفة غريبة وأوضحت لميديا كيف تعمل كورينث، ماذا يعني أيضا، أن أجعلها تعرف شيئا فشيئا، بأي طريقة أمارس سلطتي، التي تتضمن أن تبقى غير منظورة وكل شخص مقتنع قناعة ثابتة، خاصة الملك أنه وحده، كريون، مصدر السلطة في كورينث. لم أستطع أن أقاوم الدغدغة، أأكسر الوحدة والكتمان، التي حكم علي بها، وأجعل هذه المرأة الغشيمة نوعا من نديمة، سلاني أنها لم تعرف تقدير الهدية التي قدمتها لها، لأنها اعتبرتها أمرا بديهيا. كان هذا في الوقت الذي كنا لا نزال نستطيع فيه أن نقوم بمثل هذه الألعاب مع الغرباء. كنا واثقين من أنفسنا ومن مدينتنا، وقد استطاع منجم الملك أن يسمح لنفسه ببذخ أن يوضح لمهاجرة، لا يمكن أن تصبح أبدا وفي أي الظروف خطرة علينا، علام يستند بريق وثروة مدينته. فالأمر يتوقف على ما يريده المرء بالفعل وما يعتبرة مفيدا، أي جيدا وصحيحا. لم تعارض ميديا هذه الجملة كليا، رفضت فقط "أي" في وسطها. ما هو نافع ليس بالضرورة جيدا. أيتها الآلهة! كم عذبتني وعذبت نفسها بهذه الكليمة "جيد"! بذلت جهدا لتوضح لي ما الذي كانوا يفهمونه حسب زعمها من كلمة جيد في كولخيس. كان جيدا ما كان يحفز تفتح

كل ما هو حي. أي الخصب، قلت. قالت ذلك ميديا أيضا وبدأت تتحدث عن قوى معينة تربطنا نحن البشر بكل الأحياء الأخرى والتي ينبغي أن تتدفق بحرية، كي لا تتوقف الحياة. فهمت. لدينا في كورينث أيضا مجموعة صغيرة من المتحمسين، تقود مثل هذه الأحاديث، واجهتها قائلا، ولكن أن يسعى المرء إلى هذا جديا، سيجعل مستحيلا على الإنسان، كما هو طبعه، أن يحيا في جماعة. فكرت، وقالت، الأمر يعتمد. علام يا ميديا. قالت، دعني، إنه ينكشف لي، لا أستطيع بعد أن أعبر عنه.

كان موحيا دائما أن يتحدث المرء معها. لكني كنت أفهم أيضا أنها كانت تثير أعصاب بعض الناس. أتوسم هذا في كريون، إنه ليس ذكيا، يجد نفسه سريعا وقد حوصر فيطلب مني أن أنقذه، يومذاك سمحت لنفسي بمتعة أن أتجاهل إشاراته وأتظاهر بعدم الفهم. وجد المرأة ذكية جدا، وطويلة اللسان جدا. وبشكل خاص كانت بالنسبة له غير مريحة. كانت، كيف ينبغي أن أعبر عن ذلك، شديدة الأنوثة، وقد لون هذا فكرها أيضا. وجدَت، لكن لماذا أتحدث عنها بصيغة الماضي، إنها تعتقد، أن الأفكار تطورت نابعة من المشاعر، ولا ينبغي أن تفقد العلاقة بها. فكرة قديمة بالطبع، أكل الدهر عليها وشرب. تبلد المخلوقات، أضفت. قالت، مصدر مبدع. وقفت ليالي بطولها إلى جانبي في شرفة برجي للمراقبة ووضحت لي تنجيم الكولخيسيين، الذي تمارسه النساء والذي يعتمد على مراحل القمر، وتركتني أذكر لها أسماءنا للنجوم، وأصف مسارها وأذكر الاستنتاجات التي أستخلصها من سير النجوم ومن تشكيلاتها بشأن مصيرنا.

أصغينا إلى الموسيقى السماوية، إيقاع بلوري لم تُعَد أذاننا له، لكنها تستطيع في لحظات فريدة من التركيز الأقصى أن تلتقطه. كانت ميديا هي المرأة الأولى التي التقطت هذا اللحن في نفس اللحظة التي التقطته فيها. كما لو أن قوسا عظيما يلامس وترا مرتعشا، قالت. كان كذلك بالضبط. في تلك الليلة، هذا ما أقر به، هزني هذا المشهد فوق المعتاد، وبطريقة أخرى.

حين لم ترد أن تتابع تنبؤاتي، التي استخلصها من السماء ذات النجوم، شعرتُ بالاستياء. فقد كان لنا في كورينث في الآخر تقليد عريق في تفسير النجوم، سلسلة أسلافي الذين ننقل أسماءهم بإجلال، طويلة، وإذا سمحت أيضا لنفسي بأفكار خارج المسارات المفروضة، فهذه لا تبعد الرغبة أن أنضم في يوم من الأيام إلى هذه السلسلة وأتابع الحياة في ذاكرة أبناء بلدي. لماذا؟ هنا سألت ميديا ثانية. لم يسعني إلا أن ألاحظ أنها تقترب بأسئلتها من حيز كنت قد وضعت حوله حدا لا يجوز لأحد تجاوزه. أستطيع أن أقول أيضا أن أسئلتها جعلت وجود هذا الحيز واضحا أمامي لأول مرة، واستحضرت كل المناسبات المؤلمة والمخجلة التي أرغمتني على ايجاده. أصبحت الآن فظا. لماذا، لماذا! صحت. لماذا يريد المرء أن يتابع الحياة! إنه سؤال فائض. صمتت بطريقة أقوى من أي كلمة أفهمتني أنها ليست موافقة. حسنا ماذا، بدأتُ ثانية، أنت لا تريدين أن تتابعي العيش في ذاكرة قومك، أم ماذا. لم تفكر في هذا بعد. يمكنها أن تروي ذلك لمن تشاء ولكن ليس لي. هذا الصمت ثانية. بدأ يثير فيّ شيئا يشبه الغضب، انفعال كنت قد تركته لأنه لا يليق بي. بعد وقت

طويل، في سياق آخر تماما استطعت أن أقول لها فجأة: لدينا يمجد جميع الأسلاف، هل تدرين. كان علي أن أضحك أحيانا.

بالطبع دهش قومي الكورينثيون من فريق المهاجرين كما لو كانوا حيوانات غريبة، لم يكونوا غير ودودين تماما، ولا ودودين تماما. كنا نعيش بضع سنوات طيبة، يلاحظ المرء ذلك دائما فيما بعد، تمتعنا بدهشة الكولخيسيين من رفاهيتنا. بتعاقب بعض المواسم ذات المحاصيل الجيدة، مخازن مليئة، أسعار منخفضة للمواد الغذائية، مائدة عامة للفئات الفقيرة بين حين وآخر، التبعية للحثيين لا تكاد تلحظ. ما كان مساويا في الأهمية بالنسبة لي: أن القصة التعيسة مع ايفينوي كانت قد نسيت أخيرا، من قبلي أيضا تقريبا. لم يعد أحد يسأل، ما إذا كانت قد خطفت بالفعل من قبل بحارة لتتزوج بإجلال ملكهم الشاب. وما لم أكن سأعتبره ممكنا، رضي الناس بهذا، أن ميروبا، ملكتهم المحبوبة كانت مريضة على الدوام، أنها سكنت في هذا الجناح البعيد من القصر، ولم تسمح لغير هاتين المرأتين اللتين يصعب وصفهما بالدخول عليها، لا أحد، دون استثناء. لا أعرف حتى أنا، عما إذا كانت قد أمرت بهذا، ما إذا كان نوعا من النفي لها، أم أنها بعد حادث ايفينوي تجنبت كل ما ينتمي إلى القصر مثلما تتجنب الطاعون. في وقت ما توقفت أن أسأل عن هذا.

كنت شابا حين حدث كل هذا. كنا نعيش فترة غير مستقرة، كانت الشعوب حول بحرنا المتوسط في حركة، كانت مدينتنا أيضا مهددة بانشقاق داخلي. وكان ثمة حزبان في المجلس، أحدهما يخضع لكريون، بينما يقف الآخر إلى جانب الملكة ميروبا التي كان لها صوت

مهم، فوفق عادة قديمة أصبحت لا معنى لها منذ وقت طويل، حصل الملك على العرش من الملكة على سبيل الإعارة، انتقل الإرث في خط أمومي. أُريدَ أن تكتسب هذه القوانين القديمة المنسية فجأة أهمية، تنازع الحزبان نزاعا عنيفا. قامت إمكانية التحالف مع مدينة مجاورة، كانت ستجعل كورينث آمنة حصينة، ولكن تحت شرط واحد هو أن تتزوج ايفينوي الملك الشاب لتلك المدينة وترث عرش كريون فيما بعد. وجد الكثير من أعضاء المجلس هذه الاقتراحات منطقية، بينهم ميروبا. الأمل في تحرير كورينث من مختلف القوى الكبيرة المحيطة بها أمر مرغوب جدا. كان كريون ضد هذا. لم يستطع المجلس أن يحقق ما يريد بدونه أو ضده. ثارت ميروبا، أصبح واضحا لديها أن رفض الملك موجه ضدها. وقفتُ إلى جانب كريون. قال لي في ساعة ألفة، بعد إقصاء ميروبا من النفوذ الذي كان صعبا وتطلب وقتا طويلا وكثرة حيلة وصبر ومثابرة، ليس ثمة معنى الآن من تثبيت أمل في مرحلة جديدة من سيادة النساء في الإبنة ايفينوي والنساء اللائي يساندنها. قال أن ليس لديه شيء ضد النساء، ففي تاريخ الشعوب حول بحرنا توجد أمثلة كافية على عوائل مالكة من النساء. القلق على مستقبل كورينث هو ما يوجهه في قراره، وليس المنفعة الشخصية. فمن يعرف قراءة إشارة العصر، فإنه يرى أن دولا حولنا تأسست بالقتال والوحشية. وأن كورينث توجهها نساء بالطريقة القديمة لن تصمد ببساطة أمامها. ولا معنى لأن يخرج المرء على سير العصر. يستطيع المرء فقط أن يحاول التعرف عليه في الوقت المناسب وأن يمنع أن يكتسح من قبله. الثمن الذي على المرء أن يدفعه لقاء ذلك، يمكن على

أية حال أن يكون مؤلما جدا.

الثمن الذي دفعناه كان ايفينوي. لو لم نضحِ بها لبادت كورينث بأكملها، قلت لميديا. ما الذي يجعلك متأكدا هكذا، قالت هي. كان واضحا أنها ستطرح هذا السؤال. وقف شعر رأسي حرفيا حين جاءت هذه الأغاميدا المضعضعة من الكراهية وهذا البريسبون الذي يستعصي على الوصف بوشايتهما، وحين بدأت أدرك أن ميديا كانت تعرف كل شيء. أنها وقعت في الفخ. وأن ذلك كان بذنب منها، فهو ما يجعلني أكثر حنقا. ما يجعلني متأكدا هكذا، صرختُ، أتسألني هذا أنا الذي عاش الحوادث و، حسنا، يحق لي أن أقول عانيت منها؟ على العكس عليها أن تفكر مرة، عما إذا كان يحق لها فعلا، أن تعلم أحدا حول كيفية التصرف إزاء بلده أو إزاء العائلة المالكة فيه. بقيت ويا للغرابة هادئة. كيف تتعامل مع كولخيس وهروبها منها، فهو ما عليَّ أن أتركه لها ببساطة. ولكن علي أن أعرف أن هذا التحريض كله ضدها، المبني على إتهامات باطلة بمعرفة، فائض. لم يكن في نيتها في أي وقت أن تتحدث حول ما رأته في المغارة، وحول ما علمته. وهي تستطيع أن تصمت وهو ما يفترض أنني أعرفه. أرادت وضوحا لنفسها فقط. ألا نستطيع أن نحتمل هذا.

وقفنا أمام بعضنا كأعداء. ما كان يجوز لي أن أشعر بالأسف. فقط لا تكوني متعجرفة هكذا. فقط لا تكوني واثقة جدا هكذا، عزيزتي ميديا، قلت لها. تقول تحريض. ولكن إذا أصبح أبناء بلدك، دون دفع منا، من أنفسهم ببساطة متشككين؟ هل يبدو لك أمرا خارجا على المألوف إلى هذا الحد أن يسألوا عما إذا كانوا قد أقنعوا بالهرب

بافتعال وقائع كاذبة؟ عما إذا لم يكن ثمة من له مصلحة شخصية تماما، بمغادرة البلاد، حتى قبل أن ينفضح قتل الأخ؟

توقعت حنقها الملتهب، لكني جنيت سخرية. غير معقول؟ طبعا. غير معقول على الإطلاق، بعد كل هذه السنوات، ومناسب جدا لمصالحنا، التي سنمثلها بالمناسبة تمثيلا أفضل، لو لم يكن لدينا هذا الخوف الذي لا حدود له من الكشوفات. لو صح أن دوام كورينث كان دون قتل ايفينوي - قالت قتل - مهددا: كيف لا نتوقع من كورينثيينا أن يكونوا الآن بعد كل هذه السنوات، قد فهموا. إنهم متبصرون بما يكفي لأن يضعوا استمرارهم في الحياة ورفاهيتهم فوق حياة فتاة شابة. أم أننا أردنا أن نتابع المغالطة والكذب ونقبل بكل الضحايا التي لا بد أن تنجم عن ذلك. حيث يجب أن أكون قادرا أن أعرف أن الحال لن تكون مرضية، ولا بالنسبة لنا أيضا.

كانت تعرف. لم أفكر في أن أجيبها على مثل هذه الأسئلة. لا يمكن أن يكون قد فاتها أن رفاهية أهل بلدي كورينث الأحباء متوقفة مباشرة على وقوفهم إلى جانب أكثر الناس براءة تحت الشمس . إنه لمثير للضحك أن يفترض أن الناس سيكونون أفضل لو قيلت لهم الحقيقة حولها. سيكونون عندها مخذولين وعنيدين، لا يمكن كبحهم، لا يمكن حكمهم. إلى هذا الحد يتطابق مع قناعتي أنه كان صحيحا، أنه كان الشيء الوحيد الصحيح، أن يتكتم المرء على التضحية بايفينوي، وأن اولئك الذين أمروا به والذين نفذوه، يُمتدحون لأنهم أخذوا على عاتقهم حملا ثقيلا من أجلنا جميعا. لم أكن معهم.

يقال إنه لم يكن شيئا جميلا. أجل أنا أعرف كيف يضحي المرء

بثور شاب أمام المذبح.

أقيم مذبح في ذلك الممر تحت الأرض، وإذن فالحديث عن قتل هو منكر. الفتاة، طفلة حلوة، لقد عرفتها، قيل إنها كانت طيبة النية. أمسك أربعة رجال بأمها ميروبا، كانت في ذلك القسم من القصر الذي تسكنه منذ ذلك الوقت. يقال إنها فقدت صوتها بسبب صراخها المجنون، فهي منذ ذلك الوقت خرساء. كريون، الأب، كان في رحلة بحرية إلى الحثيين الذين تفاوض معهم على اتفاقيات أمكن للأشرار فقط وصفها بأنها خضوع. الآن، هذا صحيح، يستند الحثيون على بنود معينة، كانت مقصودة لحالات، لم يكن ينبغي أن تحدث، يستغلون الآن التغييرات حول بحرنا المتوسط، ليثبتوا تفوقهم، تبعيتنا لهم تزداد، وضع كريون صعب، وقد أنتاب الكورينثيين مزاج الأزمات. تثير ميديا اضطرابا في وقت غير مناسب، هذا ما قلته لها. هكذا، قالت، لكنها لم تعد ترى وقتا مناسبا. ليس لي، ليس لكورينث. ولا لها هي أيضا. أضافت، وفوق ذلك، حيث أنني لست واحدة منكم. لكن كان يمكنك أن تصبحي واحدة منا، قلت. فردت: هل تعتقد هذا حقا، يا أخاماس؟

كلا، لا أعتقد هذا.

ذهبت مرضعة ايفينوي معها. يقال أن المرأة قالت، يجب أن ترى الطفلة وجها مألوفا على الأقل حين تموت. يقال أنها تحدثت طيلة الوقت مع الفتاة وترنمت لها بترانيم النوم القديمة. يقال أنها أمسكت بيدها وقادتها على طول الممر المضاء بالمشاعل، خلف الكهنة الذين اختيروا لتنفيذ التضحية، وأمام موظفي الملك الذين كان عليهم أن

يشهدوا بالتنفيذ. إلى أين نذهب، سألت ايفينوي مرة، ربتت المرضعة على كفها مهدئة، ماذا يفعل هؤلاء، سألت ايفينوي في الأخير تماما، حين أمسك أحدهم برقبتها وأحنى رأسها فوق المذبح. ما الذي دفعني أنا التعيس أن أسأل واحدا من الموظفين الشبان عن التفاصيل، كان فرحا أن يتحرر منها، حملني اياها. لم تترك المرضعة يدها، تشنجت حين تغلغلت السكين عميقا في رقبتها. لا يستطيع حتى الطاعنون في السن في كورينث أن يتذكروا أضاحي بشرية، حقا، قال الكاهن الأعلى، وما يبرره فقط، أنه يوفر علينا تضحيات بشرية أسوأ. لقد فقدت المرضعة عقلها طبعا، مضت أياما في شوارع كورينث منكوشة الشعر جاحظة العينين، محاطة بالحراس الذين لم يسمحوا لأحد أن يتحدث إليها. تجنبَت الملكة، ذات يوم وجد المرء جسدها المهشم أسفل صخرة ناتئة. أشاع القصر انها لم تستطع أن تحتمل فقد طفلتها بالرضاعة، الحقيقة إذن، أنها فقط، مثل حقائق كثيرة، تستند إلى شروط غير صحيحة. فقد حصلت كورينث على الخبر بأن ايفينوي الشابة قد خطفت، وأن المرء يتفاوض مع العائلة المالكة التي ستتزوج من أحد أفرادها، ولا يوجد سبب للقلق.

تعلمت الكثير من هذه القضية. تعلمت أن ليس ثمة كذبة بلقاء إلى درجة لا يصدقها الناس حين تتفق مع رغبتهم السرية في تصديقها. كنت مقتنعا، حول اختفاء الصغيرة ايفينوي، التي كانت تستطيع أن تمضي وحيدة في شوارع كورينث، محروسة بحب الشعب، من تأثر الناس بكل هذه الرقة والرهافة - حول اختفاء ايفينوي ستنفجر الاضطرابات، فقد كان التضليل الذي ألقمه المرء للشعب كبيرا. لم

يحدث شيء من هذا. نعم، لو اعتقد الكورينثيون أن الفتاة لا تزال في المدينة، لاقتحموا كل بناية خمنوا وجودها فيها، وحتى القصر. لقد قدم لنا انتحار المرضعة خدمة لا تقدر بثمن: اعتقد الكل أن ايفينوي كانت قد ذهبت. لا يقدم الناس حياتهم من أجل شبح. يفضلون أن يتصوروا أن الطفلة تزوجت زواجا سعيدا، في بلد مزدهر، لدى ملك شاب، على أن يتصوروها ميتة ومتفسخة في ممر مظلم في مدينتها. هذه طبيعة بشرية. يحافظ الإنسان على نفسه بأي شكل يستطيعه، هكذا خلقته الآلهة. وإلا لما بقي موجودا على هذه الأرض. انتشرت أغان تغني ايفينوي، كعروس جميلة شابة. إنها تخفف عن قلوب الكورينثيين، إنهم يذيبون شكهم الشرير وشعورهم بالذنب وحزنهم في حنين عذب. لا يستطيع المرء أن يندهش بما يكفي، ولا أن يعجب بحكمة الآلهة التي جعلت الأمر هكذا وليس بشكل آخر. قد يصبح قسرا، أن يراقب المرء دائما ومرة بعد أخرى، حين يكون المرء قد تبين كيف تسير الأمور.

أن أكون قد تبينت كيف تسير الأمور، فهو ما أستطيع أن أقوله. أما أنه لا يزال يستهويني، فلا. كم أبْرَمُ منذ الآن بما سيحدث لميديا! كم يضجرني أن أتنبأ بالدرجات المنفردة لسقوطها الذي لا يمكن وقفه. لقد طالبتني أن أقول ما أعرف في العلن: إنها ليست قاتلة أخيها. لم تفهم حتى الآن أن هيارا من الحصى قد أخذ طريقه، سيدفن تحته أي واحد يريد وقفه. هل أريد هذا فعلا. سؤال غريب. لا أعرف الجواب. أكنت من أطلق الهيار؟ على أية حال كنت واحدا من الأوائل، الذي رأى أنه ضروري أن يطلق. لا يعجب الواحد دائما ما هو ضروري، ولكن

أن أتخذ قراراتي بما يمليه علي واجب منصبي، ليس وفق التحبيذ الشخصي وإنما من منطلقات أعلى، فهو ما قد طبعني بشكل لا يمحى.

هذا البريسبون الغبي المعجب بنفسه. هذه الاغاميدا العمياء في كراهيتها. يتبعان شهواتهما دون رادع. أية رغبة كانت لي، لا أن أطردهما فقط بواشايتهما الخبيثة وإنما أن أتركهما يرجمان بسبب القذف. لو عرف هذا الشخص، أغاميدا، أية صور مثيرة للشهوة أتركها تمر أمام عيني، بينما أرضي رغبتها. ولكني لا أعيش لأتبع رغبتي. نعم، قالت ميديا. أعرف. هذا هو سوء حظكم.

هل كانت هكذا دائما؟ هل أصبحت مع الوقت الذي قضته بيننا أكثر جسارة؟ هل أسهمت في ذلك لأنني تسامحت معها في الكثير، هذا ما يراه تورون، مساعدي الشاب الذي يعد نفسه قاصدا ليكون خلفي، بوسائل أخرى، غير وسائلي، غير تلك التي اعتبرها جيلي مسموحا بها. هؤلاء الأصغر سنا لا يعرفون رادعا، أحيانا يبدون لي مثل حيوانات يافعة متوحشة تتجول عبر دغل، بمناخير منفوخة تبحث متشممة عن فريسة. أقول لتورون شيئا كهذا مواجهة، فيقلص عضلات وجهه كما لو كان يعاني من ألم في الأسنان، ويسأل بوقاحة تامة، عما إذا كانت الحياة في مدينتنا الجميلة كورينث لا تشبه دغلا. عما إذا كنت أستطيع أن أذكر له واحدا فقط وصل إلى فوق دون أن يتبع شريعة الغاب. عما إذا كنت حقا سأنصح شابا موهوبا لإدارة الجماعة، لا يرتبط بصلة قرابة مع العائلة المالكة، أو ليس له سند في الأوساط العليا أن يلتزم باستقامة بجميع القواعد والقوانين

والواجبات الأخلاقية. عرض لي وجهه المكشوف، الوقح، الذي لا يكدره هم أو شك. كان علي أن ألتفت كي لا أضربه.

ما يندر أن نفكر فيه، يتحدثون به. هل ينبغي أن يسمي المرء ذلك أمانة. تحدثت حول ذلك مع لويكون الذي قبل كغلام يافع للتعلم لدى فلكيي الملك معي في نفس الوقت تقريبا. إننا لا نتقابل إلا نادرا. أنا لا أدفع نفسي لمقابلته، أعتقد أنه يعتبر نفسه في السر ضمير كورينث. حقا؟ قال لويكون. في هذه الحالة لا يستطيع المرء أن يفرق بين الأمانة وقلة الحياء. طريقة الأشخاص مثل تورون هي أن يستخدموا ضدنا ببرود الوسائل التي طورها الأكبر سنا لأغراض أخرى. وليس لديهم هدف آخر غير تقدمهم الشخصي.

كان جميلا من لويكون أن يقول "ضدنا" ويشملني معه. كان كلانا يعرف أنني لم أعد أنتمي إلى اولئك الذين يعنيهم لويكون. لا يستطيع المرء الحصول على كل شيء، أن يكون الفلكي الأول للملك ويقف على قدم الثقة مع شخص مثل لويكون.

كان علي أن أقرر حين حصل الأمر مع ايفينوي في أبعد وقت. كان لويكون ينتمي بالطبع إلى مجموعة الكورينثيين التي لم تكف عن السؤال عن ايفينوي. قيل أن شيئا مثل مؤامرة قد حدثت، وأنها أحبطت، لم يكن لي فيها نصيب. ألحق لويكون بتلك الحلقة من الفلكيين التي تقضي حياتها في مراقبة النجوم، التي تكمل خرائطنا للنجوم وعليها أن تتجنب أي تفسير، مثل السياسة مطلقا. جاء هذا مناسبا له في الظاهر، هناك يجتمع بالطبع أكثر الناس موهبة، وأكثرهم سخرية، يناقشون موضوعات غير متناولة، تسود بينهم

نبرة رفاقية متساهلة. لا أفكر بالطبع أن أدع لويكون يلاحظ أنني أشعر بشيء من الحسد من حياته الهادئة، الملتزمة بمعاييره الخاصة فقط. لا يستطيع المرء الحصول على كل شيء.

بالمناسبة قابلت أمام بابه في البرج ميديا. هذا لا يعجبني. ما الذي يُشرع به. إذا كانت تبحث لديه عن العزاء، فلتفعل. أما إذا كان سيتشكل حلف لإحباط الإجراءات التي سيكون علينا اتخاذها قريبا، فإنني لن أعود قادرا على حماية لويكون أيضا، ولكن أرجو ألا يكون ثمة شيء من هذا. أفكر كثيرا، نصف حانق، نصف متألم في السؤال الذي طرحته ميديا حين تركتني، بعد محادثتنا الطويلة. سألت: من أي شيء تهربون جميعكم.

أخذ مني ما أملك.
ضحكي، رقتي، قدرتي على الفرح،
مشاركتي الألم، قدرتي على المساعدة، حيوانيتي،
إشعاعي، أخمد كل ظهورلأي من هذا على انفراد،
حتى لم يعد ثمة ما يظهر.
ولكن لماذا يفعل أحد هذا، هذا ما لا أفهمه.

انغبورغ باخمان، تساؤلات فرانتسا

غلاوكا

إنه ذنبي. لقد عرفت أن العقوبة ستوقع، آه، أنا متدربة على تلقي العقوبات، العقوبة تصطخب فيّ، قبل أن أعرف وجهها بوقت طويل، أعرفه الآن وأرتمي أمام مذبح هيليوس على الأرض وأمزق ثيابي وأخدش وجهي وأتوسل إليه أن يدرأ هذه العقوبة عن مدينتي ويوقعها علي فقط، عليّ، أنا المذنبة.

الطاعون. آه، إنه المغالاة. هل يوجد ذنب يجلب الطاعون كعقوبة، كنت أستطيع أن أسأل تورون الذي لم يعد يبتعد عني، لقد ألحقه أخاماس بي كحام، إنه في مثل عمري، شاب شاحب نحيف بشكل لا يصدق، بوجنتين مجوفتين وأصابع عظمية طويلة ونظرة لزجة، على أن أكون ممتنة له لعنايته بي، تركهم يقولون لي أن الملك قلق عليّ، تعيقه أعمال الحكومة من أن يأتي بنفسه إليّ، هذا بديهي، حتى لو جاء ما كنت سأستطيع أن أقول له، إنني أقشعر من أصابع تورون العظمية الرطبة التي يحب وضعها على ذراعي أو على كتفي، وحتى على الجبين ليهدأني، هكذا يقول، ورائحة العرق الفاسد التي تفوح من تحت إبطيه تثير اشمئزازي. لا أعرف إنسانا آخر له هذه الرائحة، على العكس، يوجد ناس لا يشبع المرء من شم رائحتهم، ولكني لا أريد أن أفكر في هذا ثانية، ليس ثانية في المرأة التي وضعت أيضا يدها على جبيني، كلا، فرض علي أن أنساها، وجب علي أن أنساها، جميعهم على حق، اولئك الذين نصحوني بهذا، خاصة كريون، أبي على حق، يجب أن أمحو إسم هذه المرأة من ذاكرتي، يجب أن أبعد هذا الشخص كاملا

من رأسي، أن أقتلعها من قلبي، يجب أن أدعهم يسألونني أو أسائل أنا نفسي، كيف حدث لي أن فتحت لها قلبي، لها، تلك التي ستبقى غريبة عنا دائما، تورون على حق بلا ريب في أن يسميها خائنة، أن يتهمها بالسحر الأسود، ولكن ما يقوله تورون لا يهمني في الواقع، لا يمسني عن قرب، كما مسني يأس أبي، إذ أن غضبه الذي لا حدود له عليّ، لا بد أن يكون متأتيا من اليأس، أليس كذلك، لم يره أحد أبدا غاضبا هكذا، لا أستطيع أن أتذكر أنه لمسني من قبل أبدا، لقد تجنب لمسي، وقد فهمت هذا دائما. أي رجل، حتى لو كان أبا يحب لمس الجلد المتسخ الشاحب، الشعر الخفيف المسترخي أو الأعضاء عديمة المهارة لفتاة، حتى لو كانت الإبنة، أليس كذلك، إنه يقيني المبكر من أنني قبيحة؛ لتضحك المرأة التي لم أعد أريد أن أذكر اسمها مني كما تريد، لتعلمني حيلا، كيف أقف، كيف أمشي، بم أغسل شعري وكيف علي أن أصففه، وقعت في الشرك طبعا، وقد صدقتها تقريبا، شعرت تقريبا أنني مثل أية فتاة أخرى؛ هذا ضعفي، أن أصدق اولئك الذين يتملقونني، رغم أنه لم يكن تملقا في الواقع، كان شيئا آخر، كان أكثر إغراء، أعمق، حرك أكثر النقاط خفاء في داخلي، أعمق الألم الذي لم أستطع أن أبوح به حتى ذلك الوقت إلا للآلهة ومن الآن فصاعدا سأستطيع أن أبوح به للآلهة فقط، والى الأبد، أي حكم، لا ينبغي أن أفكر في ذلك، إنه يسبب لي المرض. هذا ما علمتنيه، أنه يسبب لي المرض أن أستدعي مرة بعد أخرى الصور التي تظهرني كإنسان شؤم، دودة نحس، فقط لماذا، قالت وضحكت، بالطريقة التي تملكها هي وحدها والتي، وتورون هنا على حق، قليلة الحياء تقريبا، تستطيع

أن تضحك هكذا في جبالها المتوحشة، قال، حسنا، ولكن لماذا ينبغي علينا أن نسكت على هذه الضحكة المتطاولة. – قالت، لماذا تريدين أن تخنقي حياتك بأكملها تحت هذه المناديل السوداء، نزعت عني الملابس السوداء التي كنت أرتديها، بقدر ما أتذكر جاءت بأرينا معها، إبنة ليسا، كان معها قطع أنسجة كتلك التي تنسجها النساء في كولخيس وحدهن، ألوان فتحت عيني، أمسكتا بالأقمشة أمامي، قادتاني إلى مرآة، ولكن هذا لا يناسبني، قلت، ضحكتا وحسب، كان ينبغي أن يكون أزرق معينا مشرقا، هذا يرفع، قالت أرينا، بشريط ذهبي حول العنق وفي حافة التنورة. خاطت لي الثياب؛ كان عليهما أن تتكلما كثيرا، حتى أرتديتها، بعيون غاضة جريت في الممرات، واحد من الطباخين الشبان لم يعرفني وتبعني بصفيره، شيء غير معقول ورائع، آه كم كان رائعا. ولكن كان هذا سحرها الأسود، جعلتني أشعر بشيء لم يكن موجودا، غير موجود، قيل أن ذراعي وساقي أصبحت فجأة أكثر مهارة، على أية حال بدا لي ذلك، ولكن كان كل هذا مجرد خداع، سخرية قال توررن ووضع يده بإشفاق على رأسي، كان يعني بالطبع سخرية من بائسة وتعيسة ومغبونة من الآلهة، والدليل على ذلك هو أن ذراعي وساقي فقدت مهارتها الخادعة ثانية، الآن حيث أبعد عني تأثيرها المفسد، وأعيدت إلى ثيابي الداكنة التي تليق بي، ولن يخطر لصبي طباخ غبي أن يصفر ورائي، وهو غير لائق إلى أبعد حد أزاء إبنة الملك، صرخ كريون، حين كشف أخيرا أمر هذه المرأة، حين أبلغه المرء أنها تزورني كثيرا وبانتظام، تُرى أين نحن، صاح، هل يستطيع كل واحد هنا أن يفعل ما يريد، ألقي هذه المرأة

خارج الباب الأمامي فتدعها إبنتي تدخل ثانية من الباب الخلفي؛ أمسك بي كريون من كتفي وهزني، أمسكني أبي، هذا ما لم يحدث أبدا، كان خوفا وفرحا في نفس الوقت. نجحت في أن أجعله يبلغ ذلك الحد، فأمسك بي؛ كان عليها أن ترى هذا، فكرت، هي التي لا ينبغي أن أراها بعد الآن، هي التي أرادت أن تخلصني من خوفي من أبي، أردت أن أريها أنني لم أستطع أن أنال منه سوى فرح ممزوج بالخوف. كان يفترض أن أصاب بالذعر، لكني لم أذعر، ذلك هو: أعترف بكل شيء، أعطيهم الحق، لكني لا أصاب بالذعر، ليس من نفسي، ليس منها، وإنما أسأل نفسي عما إذا كانت تعلم في الواقع أن الناس يتصرفون حين تدخل غرفة بشكل مغاير في الحال عما كانوا يفعلونه، أن أبي أيضا، الملك، لن يسمح لنفسه في حضورها أبدا فورة غضب غير منضبطة، نعم: غير منضبطة. حتى هو، يضبط مشاعره الحقيقة، حين تكون حاضرة، لأنها تصبح فجأة مخجلة له، لاحظت هذا بسرعة، فإذا كنت أتكلم قليلا فذلك لا يعني أنني لا ألاحظ وأشكل أفكاري الخاصة، قالت لي هذا مباشرة، بالمناسبة في مقابلتنا الأولى. أتذكر كل كلمة من كلماتها من البداية.

لا يخطر لأحد، كم أنتظرتها هي والكولخيسيين الآخرين، كيف تلهفت عليهم بحرارة، رشوت الخادمة الشابة التي كانت تخدمني يومذاك، لتعطيني ملابس قديمة من ملابسها، كفتاة من الشعب تسللت عبر الحاجز عند الميناء مخفية وجهي خلف منديل، أستطيع، نعم، أن أكون جريئة حين لا أكون غلاوكا. وهكذا وقفت أسفل جسر الرسو ورأيتها تهبط ببطنها المنتفخ، يسندها هذا الرجل الذي بهرني

بريقه، تمزق شيء فيّ، رأيت قامتها في مواجهة السماء،؟ كم أكرهها، سماء كورينث هذه، لم أقل هذا لأحد سواها، دائما هي ثانية، هي، هي، أجل كانت هي التي أرادت أن تعلمني الكراهية، ولكن ليس السماء، يا غلاوكا! صاحت وضحكت إضافة إلى ذلك على طريقتها، أجل كانت هي التي أرادت أن تقنعني أنني أستطيع أن أفكر بهدوء: انني أكره والدي، لن يحدث له شيء بسبب ذلك، لم أحتج أن أشعر بالذنب لذلك. هكذا بدأ تأثيرها المقيت علي، الآن يبدو لي ذلك شيئا لا يصدق، منكرا استسلمت له، استسلمت له بشهوة، هذا هو السوء في، الذي سمح له فجأة أن يتظاهر بأنه أفضل ما فيّ. إدماني على الزينة ورغبتي في التلهي وفي هذه الألعاب الطفولية، التي تركتني ألعبها مع أرينا، أرينا التي قدمتها لي كصديقة، لم تكن لدي صديقة أبدا تأخذني إلى البحر معها وتعلمني أن أستحم فيه، إنه صحي، قيل لي، وقد بدا أن الحق معهم وقتا من الزمن، أليس كذلك، وحتى الأذى الذي فيّ ظهر نادرا، إدّعت أنه سيتوقف نهائيا، كانت ثمة أيام أسابيع، حيث أنني لم أعد أنتظر في الصباحات خائفة أن يمسك بي، يخضني، ويرميني متشنجة إلى الأرض، لكن تورون يقول، كيف يستطيع المرء أن يخدع أنسانا مريضا بمثل هذه الكذبة البشعة، أنه شديد القلق علي، وهو قريب مني حين يداهمني، يتلقاني، إنه مسؤول عن ألا أجرح نفسي، يطلب المساعدة، أعتقد أن القصر كله يعرف كم مرة يداهمني، أرى ذلك في النظرات المشفقة والمستصغرة، لم أعد أستطيع أن أخطو وحدي خطوة واحدة، لم أعد أستطيع أن أنام وحدي. قيل لي، هكذا يخاف علي أبي جدا من أن أعرض نفسي لخطر، بينما حرضتني هذه

المرأة، لو علمتم، أن أذهب وحيدة في الطريق السري إلى البحر، حيث كانت أرينا تنتظرني، أحيانا لم تكن وحدها حين كنت أقترب في الفجر، كان معها كائن ذكري، ظل رجل، عرفت ملامحه، كان يبتعد حين يراني قادمة، والذي لم تقل أرينا عنه كلمة واحدة، كانت فقط قلقة، منفعلة بفرح، لم تستطع أن تخفي هذا، كنا نتعامل بثقة لكن شيئا كان يجعلني متحفظة، أن أبادرها بالحديث عن الرجل، لم أكد أصدق ما رأيت، هنا بدأت أرينا من نفسها، هذا يحدث لي أول مرة، أن تضعني امرأة موضع ثقتها، نعم، إنها متعلقة بياسون، تشنج قلبي، تعلمت ألا أدع كلمة واحدة تفوتني. وزوجته؟ تجرأتُ أن أسأل. إنها تعلم، قالت. بدت غير مرتبكة حين كانت ترانا معا، كانت تصغي إلى أحاديثنا، عند ذكر عبارة ما استطاعت أن تتحرى، أن تسأل، ما هو أول حادث أستطيع أن أتذكره، مثل هذه الأسئلة التي كان علي أن أضحك منها، قلت، لكن المرء لا يعرف هذا، قالت، آه - بينما دلكت رأسي ورقبتي بطريقة جعلتني أشعر براحة عظيمة وبددت هذا الثقل المتذبذب في مركز رأسي الذي ما كان يتركني تقريبا وأحيانا بدا رأسي المسكين كله يتفتت بقوة مخيفة، وتبدد هذا الأذى – قالت، لا ينبغي أن يشغلني ذلك أكثر، لكن أول حادث أتذكره، فهو يهمها، وماذا شعرت خلال ذلك، طلبت مني أن أمنح نفسي وقتا وأستجمع شجاعتي لأهبط بحبل في داخلي – يستطيع المرء أن يتصور شيئا كهذا –إلى أعماقي، التي ليست شيئا آخر سوى حياتي الماضية وذكرياتي عنها. هكذا تكلمت، المشؤومة، دائما عرضا تماما، وجعلت شيئا مايتحرك، وهو ما لم تستطع أن تتحمل مسؤوليته، أبي الذي فقد صوابه حين استجوبني

هو وأخاماس على حق هنا طبعا، إلى أين دفعتني. أعني، أين دفعتني داخليا، حتى حين كانت متحفظة، وأعطتني فقط غلاء أعشابها الذي كان طعمه لذيذا مرةً ومرةً مرا كالحنظل لأشربه، ولم تذكر ذلك الحبل، الذي أصبح بالنسبة لي وقتا من الزمن أكثر حقيقية من كل الأشياء في العالم الخارجي. أدعه يتدلى، أهبط، أغوص. ليس فقط حين كنت أستلقي على سريري، وإنما أيضا حين كنت أمشي بعينين مفتوحتين، وحتى حين كنت أتحدث مع أحد ما، استطعت، كلا، وجب علي أن أتابع في نفس الوقت بانتباه متوتر هذه الصورة المصغرة لذاتي التي بذلت جهدا أن تغوص فيّ. أحيانا أمسكت بيدها، فتركتها لي. أرادت أن تقنعني، أنه علي ألا أنكرها، الظلال التي كثيرا ما سقطت على أكثر أيامي إشراقا، ينبغي ألا أهرب حين ينتابني بانتظام خوف فظيع في بقعة معينة في ساحة قصرنا، قرب البئر، مما اضطرني أن أتعلم تجنب هذه البقعة. يستطيع المرء أن يألف ذلك. لا يخطر للكثير من الناس بكم من التجنبات يستطيع المرء أن يعيش، ثم لم تعد تلك البقعة وحدها، أصبحت الدائرة المحيطة بالبئر بأكملها، وفي الآخر ارتعدت خوفا من ساحة القصر كلها، وأصبحتُ أكثر إبداعا في أختراع الذرائع والتبريرات التي ساعدتني على أن أتجنب وجوب دخول الساحة التي يعبرها كل منا عدة مرات في اليوم. لم أفش ضعفي، لها أيضا، انتبهتْ إليه في صوت أطلقتُه، في تشنج تراجع، وكان علي أن أندهش، كيف تراقبني بدقة. لقد أخذت تأكيداتي: لا أستطيع! بجدية، لم ترد أن تبرر لي خوفي، قالت، أعرف، إنه تماما كما لو كان ينقصك ذراع أو ساق، فقط لا أحد يرى ما ينقصك. كانت صبورة، بالتأكيد

معتمدة على حسابات، ولم أعد أعرف ما أقول، كيف حملتني على أن أمشي في الساحة ممسكة بيدها. أمسكت بي بقوة جدا، لا زلت أتذكر هذا، تحدثت معي بصوت واطىء، حين اقتربنا من الموقع وابتلت يداي وضربت قدماي الأرض، هدأتني بكلماتها، كلا، كان أكثر من تهدئة، كان واحدا من أعمالها السحرية، إنه يتضح لي الآن، فلم أعد أحس فجأة بغير هدوء كبير، وحين عادت الضوضاء، جلست إلى جانبها على المصطبة الحجرية في الجهة الأخرى من ساحة القصر في ظل شجرة الزيتون القديمة جدا، لا بد أن أكون قد مشيت بالفعل، وعبرت ذلك الموقع دون أن أسقط في الحال التي أخشاها، كنت أحس بأن علي أن أعوض عنها، ليصبح كل شيء صحيحا، لكنها قالت أن ذلك لم يعد ضروريا، وضعت رأسي في حضنها، مسحت على جبيني وتحدثت بصوت واطيء عن الطفل الذي كنته وأنني أربط بذلك الموقع في الساحة ذكرى لا تطاق، كان علي أن أنساها لأستطيع أن أستأنف الحياة، وهو ما كان على ما يرام، لو لم ينمُ المنسيُّ في رأس الطفل معه خلال نموه، بقعة داكنة تصبح أكبر، هل تفهمينني يا غُلاوكا، حتى يكون قد استولى على الطفل، على الفتاة، آه لقد فهمتها، فقط فهمتها بدقة كاملة، ألقت إلي بالحبل، كان علي أن أهبط بأسئلتها، أرادت أن تقودني إلى المواقع الخطرة التي لم أكن قادرة على عبورها وحدي، أرادت أن تجعل نفسها لا يستغنى عنها، كان علي أن أتبين هذا.

مر وقت طويل قبل أن اعترف، أنني خدعت في هذه النقطة أيضا، تركتني أخدع، ولكن ما هو الصحيح بشكل عام، هل أستطيع أن أثق بعيني بعد الآن، هل أستطيع أن أعتمد بعد الآن على أي إنسان.

لا أدري، لا أدري حقا، كيف جعلتني أتكلم، أعني أتكلم حول ما كنت قد نسيته، ما خطر لي فقط في اللحظة التي رويته لها. قلت، ربما أخترع هذا الآن، قالت: لا بأس، استلقي، رأسي في حضنها، لم أضع رأسي قبل ذلك في حضن أحد، قالت، بل ربما فعلت، ربما كنت قد جلست هكذا مع أمك ولم تعودي تتذكرينه. كيف يخطر لك ذلك، صحت، لم تجب، لم تجب أبدا على أسئلة معينة، في هذا يرى المرء كم أنها متحسبة، كانت تعول على أني لن أستطيع أن أستمر في الصمت ولا بد أن أتابع الكلام، أتجاوز حرجي وأتكلم، تكلمت وتكلمت، حتى وردت جملة كانت مناسبة لها، شيء عابر، غير مهم، التقطت هذا ولفت لي منه إنشوطة. هل كانت المرة الأولى التي يختصم فيها أبواك؟ كيف، قلت، ماذا تعنين. وإذن فقد رويت لها أن أمي وقفت هنا في ساحة القصر ذات يوم، جميلة بشعرها الأسود الطويل المجعد، لا بد أنها كانت لا تزال تعيش معنا في القصر، هزت يديها في مواجهة السماء، اجتزت خصلات شعرها وصرخت. ألقيت رأسي في حضن المرأة، هكذا بدأ الأمر دائما، وكان هذا ينتزعني ويعيدني إلى النسيان المعزي، لكنها لم تقبل هذا، المرأة، أمسكت رأسي بقوة، استخدمت قوتها ضده وقالت بصوت ثابت غاضب: كلا! استمري يا غلاوكا، استمري، ورأيت الرجل الذي هاجمته أمي، الذي نادته باسمه، وحاولت أن تحتمي منه، خرمشت وجهه بأظافرها. من كان هذا الرجل يا غلاوكا. الرجل، الرجل، أي رجل. إهدأي يا غلاوكا، إهدأي تماما. أنظري.

الرجل كان الملك. أبي.

إنني أكرهها. لكم أكرهها. أن تكون قد قتلت أخاها الصغير، أصدق هذا. إنها قادرة على كل شيء. واحدة مثلها لا بد أن تنزل كل الشر الذي تستطيع الآلهة أن ترسله، على مدينة، إذا تركها المرء تفعل ذلك. وجب أن تختفي ببساطة كما لو لم تكن هنا ذات مرة، إنها نفسها علمتني ألا أمنع نفسي من التفكير في شيء، يجب أن يسمح للمرء بالتفكير في أكثر الرغبات خروجا عن المألوف. ولكني أسأل نفسي الآن عما إذا كانت ستبقى على رأيها لو عرفت كل رغباتي غير المعقولة. لكان نصري السري وقلقي العميق، لقد أفلت منها برغبتي، هي، التي يبدو أنها تعرف عني أكثر مما أعرف أنا نفسي، لا تعرف، أين مضت رغباتي التي حررتُها من الخوف، أية هيأة اتخذت أو بأية هيأة تعلقت. أو بأي صوت، فقد سمعت الصوت أولا، حين أفقت مما يشبه نوما عميقا، ورأسي لا يزال مطمئنا في حضنها، الدنيئة.

إنها تستعيد وعيها، قال صوت رجالي ناعم مهموم. وقع نظري على عينين زرقاوين غير قابلتين للوصف في وجه جميل ينحني علي، ياسون. رأيته كما لو كنت أراه أول مرة، أصغيت لنبرة صوته، كيف قلق مع المرأة على صحتي، ليست لدي كلمات أصف بها مشاعري، نهضت، شعرت بالتحسن والتردي في نفس الوقت، لم يكن ممكنا أن أوجه رغبتي إلى الرجل الذي يعود لهذه المرأة، ولم يكن ممكنا أن أترك هذا. قالت لي، لقد حاولت كل هذه السنوات الطويلة أن توفقي بين ما لا يتفق، هذا ما جعلك مريضة. بعد ذلك الخصام الوحشي مع أبي الذي شاهدته وأنا طفلة صغيرة، انسحبت أمي عني، كان كما لو أنها تتجنب أي ملامسة لي. بعد وقت قصير غطى الطفح جلدي شيئا

فشيئا، كان يسبب لي الحكة ويؤلمني، هنا جاءت أمي ثانية وصنعت لي كمادات من الحليب واللبن الخاثر، وغنت لي أغاني تخطر لي الان ثانية، لكنها أرتني وجهها الحقيقي، ألم تفضل دائما الأخرى علي.

أية أخرى، سألتني المرأة طبعا، تحدثنا بلا كلل حيثما التقينا، لم نعد نلتقي أبدا في ساحة القصر، ولا نكاد نلتقي في غرفتي، بدا أنها تتجنب القصر، أستخدمت أرينا لتأتيني بالرسائل الشفوية التي كان عليها ألا تبدو وكأنها منها، دفعتني دائما أن أقول لها كل ما يمر في رأسي، خليطا ملونا، لاحظت أن أمي التي تركتني، والتي لم أعد أريد أن أعرف عنها شيئا، خطرت لي بصورة متزايدة. قالت، ربما تريدين مع ذلك أن تعرفي شيئا عنها. هل تعرفين لماذا تعيش في غرفها الكئيبة ولا تسمح لأحد بزيارتها. قلت، لا أريد أن أعرف هذا، يرى تورون أنها مجنونة، وأنا أعتقد هذا، فأنا أرى هذا، رأيت هذا في مأدبة الطعام على المائدة، حين جلست مثل مومياء إلى جانب أبي الذي يشفق عليه المرء من هذه الملكة، وحين لم تنظر حتى إلي، لم تلتفت حتى إليّ، ناهيك عن أن تسأل عني، وإنما ذهبت، ببساطة خرجت، وانتابني الأذى ثانية، نعم، قلت للمرأة غاضبة، لقد ألقته علي بسحرها، كلما رأيتها أو تحدثت عنها ينتابني. ربما كان ذلك صحيحا، قالت المرأة، ولكن ألا يزال صحيحا حتى اليوم.

كان شيئا لا يصدق، ولكن بدت وكأنها فرحة حين أصابني هذا الطفح البغيض ثانية، فقدت صوابي حين بدأ، في البدء في غضون الجلد، ثم انتشر فوق أقسام كبيرة من الجسم، مقرف، مسبب للبلل ومثير للحكة، إدعت أنه علامة على الشفاء، قلت، كيف: حليب ولبن

خاثر؟ صنعت لي نفس الكمادات مثل أمي، ترنمت فوق هذا بأغاني أمي، أعطني واحدا من أبغض الصبغات لأشربها، أرتني المواضع التي اختفى فيها الطفح من جسدي، الجلد الجديد الذي ظهر، أنت تبدلين جلدك يا غلاوكا، قالت بمرح، مثل أفعى. تحدثت عن ولادة جديدة. كانت أياما مليئة بالأمل، حتى خذلتني، مثلما خذلتني أمي ذات مرة، هذا ما لم يكن لها أن تفعله أبدا. إني أكرهها.

ستكون عجرفتها قد انتهت الان، تتهم بصراحة متزايدة بأنها قتلت أخاها الصغير، وقد سمعت اليوم أصواتا ذكرت أسمها مع الطاعون الذي استوفى أولى ضحاياه تحت في الأحياء الفقيرة للمدينة، أغاميدا التي تهتم بي بشكل مؤثر، ذكرته عرضا، راقبت بحدة كيف تصرفت أزاء ذلك، كنت مسيطرة على سحنتي، انتصار وذعر في نفس الوقت حبسا أنفاسي تقريبا: ستحصل الآن على ما استحقت. سأفقدها الآن إلى الأبد. إنهم يعدون شيئا ضدها. إنهم يخفونه عني، أحصل على كل ما يجب أن أعرفه، أطرح على الخدم بسحنة غبية أسئلة سانجة، إنهم قد اعتادوا أن يعتبروني حمقاء، بل وغبية فيتحدثون في حضوري دون تحفظ. حين يكون المرء خائفا فعليه أن يعرف محيطه بالضبط، مثل حيوان ضعيف في دغل، لقد فهمت المرأة تماما، عرفت بالضبط كم يصعب طرد الخوف، كيف يتربص قريبا من السطح الخارجي، ليظهر ثانية، لقد حاولتْ، أعترفُ بهذا، أن تحتفظ بالإتصال بي ما استطاعت، حتى حين كان لديها نفسها سبب للخوف.

سألتني أرينا يوما، متصنعة البراءة كما تفعل دائما في مثل هذه

الحالات، عما إذا لم تكن لدي الرغبة لمشاهدة واحد من أفضل نحاتي وحجاري المدينة أثناء عمله، اويستروس. كنت قد سمعت عنه الكثير، إنه يصنع شواهد قبور لأشخاص ذوي مكانة عالية، قيل عنه، إن الآلهة أعطته يدين ذهبيتين، لكني رأيت أول ما رأيت عينيه، رماديتي الزرقة، عينين نافذتين، ودودتين، نعم، ولكن ليس ودودتين فقط، متقصيتين أيضا، لم أجد فيهما أثرا لذلك الفضول، ذلك التطفل، ذلك الحسد الذي أجده في أعين أغلب الكورينثيين. قال، آه غلاوكا، حسن أن تأتي، له شعر بلون الصدأ، إنه أمر نادر في كورينث ويعتبر عيبا، لكن ليس لدى اويستروس الذي ترتد عنه السخرية والذم، طاف بي في مشغله وأوضح لي الأنواع المختلفة من الحجر والغرض الذي يستعملها فيه، أراني كيف يستخدم الازميل، أراني ألواحا وتركني أكتشف أي شكل يختفي فيها، إذ لا يختفي في كل حجر أي شكل دون تحديد، كان هذا جديدا عليّ، إنه كما هو لدينا، قال اويستروس، لا يمكن خلق إنسان من أية كرة من اللحم، إنه مريح أحيانا أن يعرف المرء هذا، ألا ترين ذلك. إنه يعاملني كشخص مساو له، ضحك بصوت عال ضحكة معدية، فظهر على أثر ضحكه رأسا امرأتان من باب الغرفة المجاورة. جفلت. كانت هنا، المرأة. لم أكن أعرف الأخرى. حسنا، قال اويستروس، أعتقد أن ثمة من ينتظرك، ودفعني إلى الغرفة الجانبية.

لم أكن قد تصورت أبدا، أنه يمكن أن يوجد شيء جميل كهذه الغرفة في مدينتي. أريتوسا، التي كانت تعيش هنا مطمئنة تماما ظهرت مع المرأة التي أتجنب إسمها، كانت أريتوسا حجّارة، كان

لرأسها نفس الملامح التي للأختام التي تنحتها من الحجارة، كان شعرها الأسود المجعد قد عقص إلى الأعلى بفن، وكانت ترتدي ثوبا أظهر نحافة وركيها وكشف جزءا كبيرا من صدرها، لم أستطع أن أحول نظري عنها. لمَ لم أرك من قبل، سألتُ قسرا، ابتسمت أريتوسا، قالت، أعتقد أننا نتحرك في دوائر مختلفة، أنا أعمل كثيرا، قلما أخرج. كانت لغرفتها فتحة كبيرة باتجاه الغرب، كانت مملوءة بنباتات غريبة، لم يكد المرء يعرف ما إذا كان يقيم في الداخل أو الخارج، شعرت أن هذا مكان جيد هنا، وانكمش قلبي لأن مثل هذه الأماكن التي يمكن العيش فيها لم تتح لي، ولكن علي الآن أن أفكر في كل هذا مرة أخرى في صيغة الماضي، قيل إن البيت الذي عاشت فيه أريتوسا واويستروس أصيب جراء الهزة الأرضية بأضرار بالغة، لم أعرف من الذي أستطيع أن أسأله عنهما. في محيطي حصلت هزة أرضية أخرى، هزة لم تدمر البيوت ولكن جعلت ناسا يختفون. إختفى كل الأشخاص الذين ارتبطوا بهذا الشخص المشؤوم، كما لو أن الأرض قد ابتلعتهم، كان علي أن أشعر أن هذا موحش، ألا يحدث هذا لصالحي، فما الذي سأتحدث به مع اويستروس وأريتوسا الآن سوى عن مصير تلك المرأة، الذي يمضي كما أحس بالضبط إلى كارثة أخافها وأتوق إليها في نفس الوقت. إذن عليها أن تأتي أخيرا.

هذه هي المشاعر الوحيدة التي أشاطر ياسون فيها، أعرف هذا بالضبط. ياسون الذي يظهر الآن إلى جانبي بصورة متزايدة، وفي كل مرة يقفز قلبي، إنه لمأزق أن لا يغير شيئا في الأمر أن يكون أبي قد أرسله. إنه متعلق بأخرى، سيبقى متعلقا بها دائما، أنا أعرف هذا،

لا يمكن التخلص منها أبدا. ولكن هل تستطيع واحدة مثلي أن ترفض هدية للآلهة، أليس عليّ أن أجمع الفتات الذي يسقط إلي من مائدة غريبة، طعمه مر، ولكن حلو أيضا، يزداد حلاوة كلما ابتعد عني، إذ يكون معي في أفكاري، يتحدث إليّ كما لم يتحدث إليّ أبدا، يلمسني كما لن يلمسني أبدا، يمنحني سعادة لم أعرفها، آه ياسون.

سيقضى على المرأة، وهو شيء جيد. ياسون سيبقى. سيكون لكورينث ملك جديد. وسأتخذ مكاني إلى جانب هذا الملك وسأنسى، أنسى، أخيرا يحق لي أن أنسى ثانية. ما لم ترد أن تسمح لي به، المرأة، أشعر بالغثيان حين أفكر كيف عذبتني، خاصة بعد ظهر ذلك اليوم لدى اريتوسا، حيث جلسنا خمسة - انضم اويستروس إلينا، ولدهشتي لويكون أيضا الذي يقال إنه يعرف عن النجوم أكثر من أي شخص آخر في كورينث والذي كنت أشعر بالخجل منه دائما - في الساحة الداخلية المبلطة التي انتصبت حولها تماثيل اويستروس كما لو كانت تقوم بالحراسة، منحتنا شجرة برتقال ظلا، شربنا شرابا رائعا أعدته اريتوسا، شعرت أنني نقلت إلى عالم آخر، تبدد خجلي، شاركت في الحديث، وسألت. علمت أن أريتوسا قدمت من كريت، وأنها هي وبعض الآخرين استطاعوا أن ينقذوا أنفسهم على ظهر آخر سفينة للجزيرة المهددة بالفيضان، كانت لا تزال صغيرة جدا، طفلة تقريبا، ولكنها أتت معها إلى هنا ببعض عاداتهم، وطريقة صنع بعض الأطعمة والمشروبات وفن قطع الحجارة، ولكن بنفسها قبل كل شيء، قال لويكون ومسح برفق على ذراعها، أمسكتْ بيده وحكت بها وجنتها. إنقشعت غشاوة عن عيني، كنت وسط أزواج من المحبين.

فرغم أن اويستروس لم يلمس المرأة، التي لا أريد ذكر اسمها، إلا نادرا، لم يستطيعا إبعاد نظرهما عن بعضهما. لم أصدق: ياسون حر.

هكذا جلسنا وتحدثنا وشربنا وأكلنا الأرغفة اللذيذة المحشوة باللحم التي أتت بها اريتوسا، خفّت حرارة بعد الظهر تدريجيا، شحب الضوء، ذهب الواحد بعد الآخر. كنت وحيدة مع المرأة. مشت بضع خطوات معي حتى بلغنا مجرى ماء انساب من حوض بئر، جلسنا على بقعة من العشب، لا بد أني قلت شيئا عن عصر جميل، عن لهفتي إلى أيام نادرة جدا كهذا، لا بد أن أكون قد فتحت لها قلبي ثانية، استطاعت أن تقودني ثانية إلى تلك الهوة، حيث تستقر صور الماضي. في ذلك الغور السحيق حيث رأيت نفسي وأنا لا أزال صغيرة جدا أجلس باكية على عتبة حجرية بين واحدة من غرف القصر والممر المنجمد الطويل. أي نوع من الغرف كانت تلك التي أجلس على عتبتها، أرادت أن تعرف، لكني لم أرد أن أنظر حولي، كنت خائفة، همست بأقوالها المهدئة، فكان علي أن ألتفت. كانت غرفة تسكن فيها فتاة. كانت ثمة خزانة مطلية بأجمل الألوان، كانت ثمة أثواب مفروشة على السرير، ومرآة مؤطرة بالذهب على حامل، ولكن ليس ثمة ما يشير إلى من يسكن هنا. أنت تعرفين هذا يا غلاوكا، قالت المرأة، أنت تعرفينه بالضبط. كلا، صحت، كلا، صرخت، لا أعرفه، من أين لي أن أعرف، لقد اختفت، لم تظهر ثانية أبدا، لم يذكرها أحد ثانية أبدا، اختفت الغرفة أيضا، يبدو أنني اختلقت كل هذا وحسب، يبدو أنها لم تكن موجودة في أي وقت، من هي يا غلاوكا، سألت المرأة. أختي، صرخت.

ايفينوي.

ايفينوي. لم أسمع هذا الاسم ثانية أبدا، لم أتلفظ به ثانية أبدا، لم أفكر فيه أيضا، أستطيع أن أقسم بهذا، ليس منذ ذلك اليوم، ولمَ أيضا، لقد ذهبت، أختي الكبرى، الجميلة، الذكية، التي أحبتها أمي أكثر مما أحبتني، والتي اختفت بين يوم وآخر، على هذه السفينة، يقول تورون وهو يثير كآبتي بعينيه المتقاربتين، ومع هذا الفتى، يقول وهو يقترب مني جدا بتنفسه الحامض، هذا الإبن لملك قوي لكنه بعيد، الذي وقعت في حبه، يقول تورون، فسلطان الحب، أنت تعرفينه أيضا، أليس كذلك، ويمط إلى ذلك زاوية فمه بطريقة بغيضة، وهكذا حدث أنها صعدت ظهر السفينة في عجلة، أيفينوي، خطفت عند الفجر دون أن تودعني.

أتظاهر بأني أصدقه، لكنه لا يعرف كل شيء، تورون الغبي، فقد ودعتني، أختي، عند الفجر. رويت هذا للمرأة أيضا، في تلك الأمسية الدافئة في الفناء الداخلي لدى اريتوسا، مطمئنة كما كنت، يتحدث المرء بسهولة أكبر في الظلام، بسهولة كما لم يحدث من قبل، بسهولة كما لن يحدث ثانية. صوت ما في الممر أيقظني فزعة من النوم، قلت، ذهبت إلى الباب ونظرت خارجا، ورأيت الآن الصورة التي كنت قد نسيتها طويلا أمامي ثانية، أختي، نحيفة وشاحبة، في ثوب أبيض وسط فرقة من الرجال، مسلحين، استغربت هذا، اثنان أمامها، الاثنان اللذان وضعاها في الوسط وأمسكا بها من ذراعها أو ربما أسنداها، خلفهما تماما مرضعتنا، بوجه لم أرها في مثله من قبل، أخافني هذا، قلت للمرأة التي تناولت يدي وأمسكت بها بقوة، ولكني لاحظت أن

يدها أيضا كانت ترتجف. قلت، ثم حين مروا بي مبتعدين بضع خطوات، التفتت أختي وابتسمت. ابتسمت كما تمنيت دائما أن تبتسم لي، أعتقد، قلت، رأتني أول مرة حقا، أردت أن أركض وراءها، لكن شيئا ما قال لي أنه غير مسموح لي أن أفعل هذا، ابتعدوا سريعا، سريعا جدا وانعطفوا حول الزاوية، تابعت سماع الخطوات المجلجلة للمسلحين، ثم لم أعد أسمع شيئا. ثم صرخة أمي. مثل حيوان يذبح، سمعتها ثانية، قلت باكية. بكيت، بكيت ولم أستطع الكف عن البكاء، أمسكت هي، المرأة، بكتفي اللتين ارتعدتا كما في الحمى بقوة، صمتت، رأيت أنها كانت تبكي أيضا. قالت لي فيما بعد، إنني خلفت الأسوأ ورائي. سألتُ، أتكون ايفينوي ميتة. أومأت برأسها. كنت قد عرفت طول الوقت.

ولكن ما معنى عرفت. يستطيع المرء أن يدعهم يقنعونه بأشياء كثيرة، أليس كذلك. تورون هنا على حق. هي، هذا الشخص، أرادت أن تخضعني لقوتها، كما هو شأن النساء من طرازها. كانت هي التي سربت إلى كل هذه الصور، كل هذه المشاعر، إنه أمر سهل لها بصبغاتها التي أخذتها مني بالطبع. لقد عززت لدي شبهات غير معقولة من كل نوع، ألا يبدو هذا معقولا. أم أنك تريدين أن تعتقدي يا عزيزتي غلاوكا، أنك تعيشين وسط مجموعة من القتلة؟ قال تورون بتلك السحنة التي يعتبرها إبتسامة. كورينثنا الجميلة التي لن يستطيع هؤلاء الغرباء أن يفهموها أبدا، نوع من المجزرة؟ كلا. لا أريد أن أصدق ذلك. بالطبع تخيلت كل هذا. كيف تستطيع طفلة، كما كنت يومها، أن تلتقط صورا صعبة كهذه وتحفظها في داخلها طيلة تلك

السنوات. أنسها، قال تورون. إنسها، قال أبي، ستأتي الآن أوقات أفضل بالنسبة لك، سترين ما أنويه معك، سيعجبك. هكذا يتحدث الآن معي، أبي، آه.

ماذا يجري هنا في الخارج، ماذا يحدث. ماذا تعني هذه النبرة المتضخمة المنطلقة من حنجرات كثيرة. بم يصرخون، ما شأني بهذا الاسم الملعون. إنهم يريدونها. أيتها الآلهة! إنهم يريدون المرأة. ساعدنا يا هيليوس.

يحدث ثانية، أحسه، لقد بدأ يخنقني، بدأ يهزني، ألا يوجد أحد هنا، أليس من يساعدني، آليس من يتلقفني، ميديا.

يريد الناس أن يقنعوا أنفسهم، أن شقاءهم يأتي من مسؤول واحد يستطيع المرء أن يقضي عليه بسهولة.

رينيه غيرارد، القديس و العنف

لويكون

الطاعون ينتشر، لقد قُضيَ على ميديا. إنها تتداعى، تتداعى أمام عيني، ولا أستطيع وقفها. أرى أمامي ما سيحدث لها. سيكون على أن أرى كل شيء. هذا قدري، أن أرى كل شيء، أن ينكشف لي كل شيء ولا أستطيع أن أفعل شيئا، كما لو لم تكن لدي يدان. من يستعمل يديه عليه أن يغمسهما بالدم، شاء أم لم يشأ. لا أريد يدين ملطختين بالدم. أريد أن أقف هنا في شرفة برجي وأراقب في النهار الزحمة في الأسفل هنا، في أزقة كورينث وتسبح عيناي في الليل في ظلمة السماء هنا في الأعلى، حيث تظهر النجوم واحدة بعد أخرى مثل أصحاب أليفين.

ولو سمح لي بأمنية أخرى لدى هذه الآلهة المتقلبة، فسألتمس الحماية لامرأتين خطر لي اسماهما. إنني أتعجب من نفسي، لم يلعب في حياتي اسم إمرأة دورا أبدا. ليس لأني تنسكت عن الأفراح التي يمكن أن تمنحها اللعبة الأزلية بين الرجل والمرأة، لكن أسماء الفتيات، اللاتي زرنني مرة أو كثيرا، بالمناسبة كن دائماً مستعدات، بل مسرورات، كما أعتقد، نسيتها بسرعة، أصبحت زياراتهن أكثر ندرة، دون أن أشعر بفقدانهن كثيرا. تقول ميديا إنني رجل يخاف الألم. وددت لو أنها خافت الألم أكثر مما تفعل.

لا زالت تجلس قبالتي في الشرفة، هب شيء من الهواء بعد يوم حار لا يطاق، نبدأ نتنفس بحرية أكبر، مصباح زيتي يقف بيننا على المنضدة الواطئة المصنوعة من خشب الصنوبر، شعلته ساكنة تقريبا، نشرب نبيذا باردا، نتحدث بصوت واطىء أو نصمت. لم نتخل

عن هذه العادة في لقاءاتنا الليلية، رغم أن الناس كلهم ينزوون في مغارات سكناهم ويتجنبون بعضهم. يسود المدينة هدوء موحش. أحيانا فقط يسمع المرء أصوات العربات التي تجرها الحمير، تنقل جثث النهار فوق النهر الذي يمتد أسود في المدينة الميتة. أعد العربات. إزداد عددها في الليالي الأخيرة. لقد قُضيَ على ميديا.

ماذا سيكون مصيرنا يا لويكون، تقول، ولا يطاوعني قلبي أن أقول لها ما أعرف، ما أرى، ما سيكون مصيرها. تأتي متقدة جمالا، ساخنة من الحب، لأويستروس، تعانقني، وأعانق واحدة لم تعد موجودة. تفعل ما لا ينبغي أن تفعله، تلقي بتحذيراتي في الريح، ولا يمكن التحدث مع اويستروس على الإطلاق. يستخرج بإزميله الذي هو امتداد لأطراف أصابعه صورة الإلهة من الحجر ولا يبدو حتى أنه يلاحظ أية هيأة يعيد تشكيلها هنا. إنها في أطراف أصابعه، ميديا، لقد ملكته، هذا ما يقوله هو نفسه، شيء كهذا لم يحدث له من قبل، الرغبة في هذه المرأة منحته رغبة في الحياة، في عمله، عندما اقتربُ قادما أسمعه يصفر في مشغله ويغني، حين تدخل عليه فقط يعم السكون. هذا الرجل الذي لا يعرف أصلا، لا أبوين وأقارب، الذي لا يبدو أن شيئا يشغل باله، الذي لا يتكتم على قدره، أن يكون قد رمي وهو رضيع ووضع أمام باب حجار كانت زوجته عاقرا فقبل هذا اللقيط كمنحة من الآلهة ورباه، الذي تعلم أسس حرفته في مشغل أبيه بالتبني وهو لا يزال طفلا، يقال أن الحجار العجوز أعطاه هذا بكرم وورع تقريبا، وتفوق عليه بعد وقت قصير، يطلب اليوم أكثر الكورينثيين نبلا شواهد قبورهم منه، كان يمكنه أن يصبح غنيا، لا

أحد يعرف حقا كيف يستطيع أن يبقى متواضعا ودون حاجات، لا يفهم المرء أيضا كيف لا يثير حسد الحجارين الآخرين. وهو بدلا من ذلك صائد بشر، يحيطه دائما شبان لديه ما يشغلهم به في محترفه، جذبني أنا أيضا شخصه غير المكترث، حين كنت معه، تعافيت من اكتئابي ومن وساوسي التي لا يبدو أنه لاحظها، على أية حال لم يذكر ذلك بكلمة، وكان هذا بالذات ما يشفي في حضوره، أنه يعامل الجميع نفس المعاملة، أنا متأكد أنه لن يتعالى لو أن الملك ضل الطريق إليه. ومن الغريب أن يلاحظ المرء أن خلو باله واستقلاله يشعان على كل من يأتي إليه سواء كان مرتفعا أو منخفضا.

تقول ميديا، إستطاع أن يصبح راشدا دون أن يقتل الطفل في داخله، كان نعمة بالنسبة لها، ولكن ألم يزل كذلك؟ لا ينبغي أن أسأل هكذا. أكنت سأقبل لو أن أحدا سألني عما إذا كانت أريتوسا نعمة لي رغم الزهد الذي تفرضه عليّ. اتفقنا دون كلمات أن نحتفظ بعلاقتنا، التي ليست بعلاقة، سرا، بينما تأتي ميديا دون تحفظ تقريبا إلى اويستروس. خلو بالها يصبح خطرا، بل فاحشا.

إنه لشيء يبعث على اليأس. كما لو أن أحدا أراد الانتقام من أنني زهدت طويلا عن العواطف بحرص، يجب أن أترك قلبي يتعلق بناس كثيرين لا يعرفون الأوضاع في كورينث حقا، ليست لديهم فكرة علام يقدر الكورينثيون حين يرون أنفسهم مهددين، كما هو الحال الآن. ميديا تشرب، تبتسم، تصمت. لقد استجوبني أخاماس بسبب صداقتي، حين التقينا ظاهريا بالصدفة على درجات البرج في نصف ظلمة، لقد اختار الوقت والمكان جيدا. قال إنني أفضل في الظاهر

اولئك الناس البعيدين إلى حد ما، هكذا عبر، أخاماسي الماكر، بعيدين إلى حد ما عن عائلتنا المالكة، أليس كذلك يا عزيزي لويكون. وأنا، محتدما بغضب عاجز متزايد، لم أجبه عن سؤاله الشامت، وإنما طرحت عليه سؤالا مقابلا ما إذا كان يستطيع أن يتهمني بأي خرق لواجبي. عما إذا كان يريد أن يجعلني مسؤولا عن الاستنتاج المشكوك فيه، الذي استخلصه الآخرون من حساباتي الدقيقة. خفف أخاماس من حدة لهجته، إلا أن كلينا كان يعرف أنني لم أستطع أن أفرح بهذا النصر؛ لا يجوز لي أن أسمح لنفسي كثيرا أن أفند تنبؤاته الخاطئة التي يقف لها شعر الرأس، كما لو لم أكن أدري، من قرأ من خرائط نجومي ما أراد الملك سماعه: سنة سعيدة لكورينث، نمو، رفاهية وسقوط أعداء الملك. بدلا من ذلك جاءت الهزة الأرضية وتبعها الطاعون. كان نجم أخاماس في البلاط في أفول، إنهار أمام أعيننا، لا يستطيع أن يعيش إذا لم يقف في أعلى القائمة في حظوة الملك، قال لي هذا مرة في وجهي، يومذاك حين ضُحي في كورينث، في كوورينثنا الفخور، بفتاة شابة على المذبح، وكان على اولئك الذين عرفوا أن يقرروا إن كانوا يريدون البقاء في دائرة هذه السلطة أو الانسحاب.

لقد عرفتَ ذلك، قالت ميديا بنبرة تثبيت للحقائق، وأنا أحاول أن أوضح لها أن ثمة درجات في سلم العلم، عرفت، نعم، حتى درجة معينة، ولكن ليس التفاصيل. ثم نسيته. وإلا ماذا كان علينا أن نفعل، سألتها. نعم. مؤسف أن الإتفاقات هشة ويمكن دفعها جانبا عند ظهور ما يثقلها. أسأل أنا، أية أتفاقات. أنتَ تعرف هذا دون ريب. الإتفاق على ألا تقدم أضاحي بشرية بعد الآن. يدهشني أنها تحمل

مثل هذه الإتفاقات محمل الجد، لكني لا أقول هذا. لا تعجبني طريقة حديثها اليوم، لا يعجبني مزاجها، لكأنها تتحرك خلف غلالة.

على أن أهزها لتستيقظ، أقول لها إن أخاماس أصبح الآن خطِرا، إنه لا يتورع في استخدام أية وسيلة ليعيد تثبيت موقعه في القصر. وبما أنه يحتاجني، فإني أتمتع بالإعفاء مؤقتا. ما لا أقوله لها هو أن علي أن أجمع كل تجربتي، كل ذكائي، كل حيلتي، وأحتاج أيضا إلى تلك القدرة فيّ، التي تشمئز هي منها والتي لا أحبها، القدرة على الصمت والانسحاب. في فترات محسوبة أقدم لأخاماس حسابات، يستطيع على ضوئها أن يتكهن بأشياء طيبة، والتي تتحقق أيضا، على سبيل المثال حول نهاية اتفاقية تجارية مع ميكينا أو حول ارتفاع عدد الولادات لدى الماشية. أكفل أن يستطيع أخاماس الاقتناع بأنه هو من حقق هذه التنبؤات ولا أحد غيره، بأنها ظهرت له في الحلم، علي أن أطفئ ضوئي ليبدو نجمه أكثر سطوعا. تَشَكّل نظام النجوم في بلاط كريون من جديد لغير صالح الكواكب الصغيرة، التي أقصيت إلى مناطق الحافة الخطرة. وقد أصبح ممكنا لمس ذلك باليد، سيزداد الخطر بالنسبة لكل من يوجد في بريق ذلك الضوء الذي يشع من ميديا. فهي، نعم هي مركز الخطر. والفظيع: انها لا تريد أن تدرك ذلك.

لا أدري ما يجب أن يحدث، لتكوني أكثر حذرا، أقول لها، وتستطيع أن تردني، نعم لأنه قد حدثت لها أشياء كثيرة، فربما كان من حقها أن تتوقع الآن أن تترك في سلام. إنها ساكنة تماما، فما الذي عليها أن تفعله أو تتركه. ينقص هذه المرأة شيء ما، رضعناه نحن الكورينثيين

مع حليب أمهاتنا، إننا لم نعد نلاحظ، المقارنة مع الكولخيسيين وخاصة مع ميديا جعلتني أعثر عليه، إنه حاسة سادسة، إنه شعور مرهف بأصغر تغييرات الجو حول ذوي السلطة الذين يرتبط بهم حياة وموت كل واحد منا. أقول لها، نوع من الذعر الدائم. حتى أن البعض عاش الذعر الحقيقي، الهزة الأرضية، مثل تحرير. أنتم ناس غريبون، قالت. وأنا: أنتم أيضا. نضحك.

لا أريد أن أقول لها أن الطمأنينة التي تنطلق منها تسمى من قبل الكثيرين من الكورينثيين عجرفة وأنهم يكرهونها لذلك. لم أفكر كثيرا في إنسان آخر كما فكرت في هذه المرأة، لكنها ليست وحدها، الكولخيسيات الأخريات يحملنني على التفكير، إنهن يقمن هنا بالأعمال الدنيا ويرفعن رؤوسهن عاليا مثل نساء أعلى موظفينا، والغريب هو أنهن لا يتصورن وضعا آخر. هذا يعجبني ويقلقني في نفس الوقت. أقول لميديا، بقربك تخالجني دائما مشاعر مختلطة فقط. آه يا لويكون، تقول، أنت تسجن مشاعرك مع أفكارك، أطلقها حرة ببساطة. ثم نضحك ثانية، وأتمنى لو استطعت أن أنسى في أي وضع هي، أن أترك لمشاعري الحرية وأستمتع ببساطة أن أكون صديق امرأة أليفة إلي أكثر من أي شخص آخر تقريبا والتي ستبقى غريبة على دائما.

مثل أريتوسا، لكن هذا شيء مختلف. غرابة الحبيبة تزيد جاذبيتها التي لا تَخفى بالمناسبة على الرجال الآخرين أيضا، إنهم يدركون جميعا أنني أسيرها، حتى أخاماس تكرم بملاحظة سخية حول سعادتي في الحب، لم يبق الكثير ليربت على كتفي، من رجل لرجل،

أوقفته نظرتي في تلك اللحظة تماما. وإذن لديهم جميعا صورة عنا، تتشدق الأفواه حولي، عن الوله الذي أدركني رغم كل شيء، إنه شيء لا أطيقه. لو عرفوا أن عليّ أن أقتسم اريتوسا مع العجوز الذي يسميه الجميع الكريتي والذي يظنه البعض أباها، إنه محبها الأقدم، هكذا تسميه. كانت تكاد تكون طفلة حين التقطها أو بالأصح أخرجها، كانت تحت أنقاض بيتها الذي هو مثل جميع بيوت كريت، مثل القصور، لا بد أنها كانت من البهاء بما لا مزيد عليه، انهدم بفعل الهزة البحرية، لا بد أن كريت بأكملها كانت كومة أنقاض وحقلا للجثث، أعرف هذا من وصف الشيوخ فقط، اريتوسا لا تتحدث عن ذلك كما لا تتحدث أبدا عن الرحلة على السفينة التي قاتل العجوز، كان يومها كهلا، من أجل الحصول على مكان فيها لها ولنفسه. بالعنف، هذا كل ما استطعت أن أستدرجه إليه. يحدث أن يفرط في الشرب، فيتحدث أكثر مما يفعل عادة، ولكن ليس أبدا في حضور اريتوسا. لا أريد أن أتخيل المشاهد التي حدثت عند مغادرة السفينة.

لا يزال العجوز رجلا قويا رغم أنه شائخ بصورة مبكرة وقد تركت الأحداث أثرها عليه، لا بد أنه كان مخيفا، كان ينتمي في كريت إلى الرياضيين الذين يتألقون أمام العائلة المالكة والشعب المتجمهر في الاحتفالات السنوية في القصر، والذين كانوا مشهورين في منطقة البحر المتوسط كلها. تقول عنه أريتوسا، هذه ظاهرة طبيعية قاطعة. لدي الخيار فقط أن أقبلها أو أن أتركها تماما. كلاهما غير ممكن بالنسبة لي. لم أعرف أن الحياة تقدم هذا النوع من الألم، لا أستطيع أن أتحدث عن ذلك سوى مع ميديا. بالمناسبة، هي لا تفكر أن تشفق

علي. نعم، تقول، هذا يضنيك، ولكن تصور أنه لم يحدث لك شيء يضنيك على هذا النحو أبدا. وتتعرف على نفسك، أليس كذلك، من خلال هذا الذي تفعله. أنني لا أفعل شيئا، أحاول أن أعترض. إنني أنتظر فقط، ولكنها لا تقبل ذلك. الانتظار هو أيضا فعل يجب أن يسبقه قرار، أجل ذلك الذي يريد المرء انتظاره ولا ينتهي منه. عدا هذا فإنني أسعى إلى الاقتراب من أريتوسا، لا أخفي مشاعري ورغبتي، أقرفص ساعة بعد ساعة في مشغلها وأنظر إلى يديها حين تقطعان الأختام من الحجر. لا يستطيع إنسان أن يتصور كيف تتحدث هاتان اليدان إليّ. تبتسم أريتوسا، لا تبعدني أبدا، يضيء وجهها دائما حين أقف بالباب، تحتك بي تحية.أسأل، هل تفهمين هذا يا ميديا. تقول، نعم. أريتوسا تحب رجلين، كل واحد بطريقة أخرى. وأنتِ؟ أسأل مستفزا، تبقى هادئة: لا أفعل. تعانق أريتوسا، إنهما تحبان بعضهما مثل أختين، تدفع ستارة الباب وتمضي إلى اويستروس.

صحيح تماما ما يراه أخاماس، هنا وقعت بين بشر لا يتركون أنفسهم يُسحبون في العجلة التي تحرك العالم كورينث. لقد دخل رمل فيها فهي ترتج وتصرّ، لا تبدو مهتمة بهذا، إنه يقلقني. لا أستطيع أن أتهم أريتوسا بهذا، لا أستطيع أن أتهمها بشيء، ولكن يحدث أن أنتقد ميديا صامتا، كيف تتفحص العلامات التي تشير إلى خراب كورينث بيقظة، بكلمة أوضح المساعي للقضاء على ميديا. أتكون كل هذه السنوات التي تدربتُ فيها على التحفظ من أجل لا شيء. ألا ينتهي إلتصاقي بهذه المدينة البغيضة أبدا.

يبدو أن أفكارنا بلغت نقطة متشابهة سالكة طرقا مختلفة، تقول

ميديا ما إذا كان قد لفت انتباهي أيضا أن ثمة حُبَيْبة طيبة أيضا تختفي في كل شر. وإلا كيف ستكون قد تعرفتْ على اوستيروس وأنا على اريتوسا دون انفجار غضب الشعب ضدها. كيف كانت ستضل الطريق إلى هذا القسم البعيد من المدينة لو لم تلاحق، في حي الضئيلين، في حدائق أكواخ الطين الوضيعة، التي يسكن فيها أفقر الكورينثيين، سجناء سابقون وأبناؤهم، كينونات مريبة من كل نوع، لا يثير الإنتباه بينهم أشخاص مثل اويستروس، أريتوسا والكريتي.

كان يوما صاحيا وشفافا من أيام الصيف الأولى، كانت الساعة التي ينتقل فيها الضوء إلى العتمة انتقالا مباشرا تقريبا، لكنه يجمع قبل ذلك قوة إضاءة تستطيع أن توسع الصدر حتى بالنسبة لي أنا الذي اعتادها منذ الصغر. إنها اللحظات التي أكون فيها ممتنا لأنني أعيش هنا، ولا أستطيع أن أتصور شيئا آخر، وبهذا الشعور بالضبط وقفت على قاعدة البرج الذي نظرت منه ليالي كثيرة إلى السماء نحو الجمال غير الأرضي لمسارات النجوم، أردت أن أتوصل إلى قوانينها الخفية، هذه كانت حياتي. لم أصبح شيخا بعد، على أية حال تقول اريتوسا هذا، ولكن بلغ بي الأمر أنه لم يعد لدي أصدقاء سوى بين النجوم، ليس بين البشر. احتفظت بود بمسافة عن الشبان الذين يتعلمون لدي والذين يُظهِر هذا أو ذاك بينهم استعدادا وعطشا إلى المعرفة، ليس فقط الاهتمام المعتاد بالتقدم الشخصي الذي لا يراعي شيئا مثل تورون، واحد من أكثر الأشخاص ذكاء من جهة، وأكثرهم انعداما للضمير من جهة أخرى.

جاء أحد تلاميذي عصر ذلك اليوم مسرعا على الدرجات، إنهم

يعرفون أنني لا أريد أن يزعجني أحد في ساعة التأمل هذه. صاح: إنهم يطاردون ميديا في المدينة! فسألت: من؟ لكني كنت أعرف كل شيء. الغوغاء. كان لا بد أن يحدث ذلك. هبطت الدرجات راكضا ودخلت دون كلفة مكتب أخاماس، الغرفة الكبيرة كثيرة النوافذ التي تمتد أمامها شرفة. قلت: أأنت راض الآن. أراد أن يتظاهر في أول الأمر بأن ليس لديه فكرة، لكني، لا أكاد نفسي أعتقد هذا، توجهت إليه مهددا حتى إنه تراجع إلى الجدار وأكد أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا، إنها قد أغضبت الشعب جدا. الشعب؟ قلت، وهنا أراد أن يضع أمامي بكل جدية قصة قتل الأخ، التي فقست في هذه الغرفة وأطلقت للنشر من هنا. آه، قلت ساخرا، لقد خطر لهؤلاء الناس وحدهم أن يتجمعوا، أن يترصدوا المرأة ويلاحقوها بالشتائم والإهانة في شوارع المدينة، كيف؟ لا بد أن يكون الأمر هكذا، تجرأ أخاماس أن يدعي في وجهي؛ أنا أعرف جيدا أن المرء لا يستطيع أن يواجه جمهرة من الشعب حلت قيودها. يجب أن تترك تمضي في الفراغ. صرخت: في الفراغ؟ تقصد إلى المرأة، أم ماذا. عليهم أن يضربوها حتى الموت. ولكن كلا، قال أخاماس، مثل هذه الجماهير جبانة في الواقع، لن يحدث لها شيء.

كنت قد فقدت صوابي، أخيرا. صرخت، هو، هو نفسه قد حرض الغوغاء، وربما يكون قد دفع لهم. ثم ذعرت. كنت على حق بالطبع، كان كلانا يعرف هذا، لكني كنت قد تجاوزت الحد. هذا ما لمسه أخاماس أيضا، إعتدل، تقدم مني ببطء وقال ببرود: سيكون عليك أن تثبت هذا، يا صديقي. لقد ربح.

لن أجد أبدا شاهدا على أن أخاماس الكبير رشا الغوغاء، فانقضّت بذلك على إمرأة. وإذا كان ثمة من هو مجنون بما يكفي ليشهد بهذا، فإنه رجل ميت. في تلك اللحظة حين تمثلت ووضعت المخططات في رأسي لجميع الإمكانات لإدانة أخاماس، في تلك اللحظة فقط تعرفت على كورينثي. وأدركت أنه يقع على عاتق ميديا أن تكشف الحقيقة المطمورة التي تحدد حياتنا المشتركة والتي لن نحتملها، وأن لا حول لي.

لا أحب التفكير في بعد الظهر ذاك، لا أحب أن أتحدث مع ميديا عنه، رغم أنني أستطيع حتى اليوم أن أبقى عند موقفي من المشاحنة الكلامية التي جرت بيني وبين أخاماس. إذا لم أستطع أن أجعله يحاسب علنا – لم أهده معرفة أنني كشفته على حقيقته، وأنني عرفت لماذا أثيرت ضد ميديا الآن بالذات إتهامات يقف لها شعر الرأس، وعوملت الآن أيضا بعنف: لأن المرء خاف أن تورد إسما في اللعبة، أردنا جميعا أن ننساه: ايفينوي. كان بالنسبة لي تخفيفا، أن أنطق بهذا الإسم أول مرة أمام أخاماس، أقول له إنني يومذاك جلست كإنسان شاب في مدخل غرفته وتسمعت إلى الكثير مما لم أفهمه في الحال، وحين فهمته، حين شكلت أخيرا صورة من تفاصيل غريبة، تسمرت أمامها، كان الوقت متأخرا. أين نعيش يا ترى، سألت أخاماس غاضبا. أجاب بنظرة فقط تقول: أنت تعرف بالضبط. وصفت المشاهد لميديا، أعترفت لها أن شجاعتي خانتني، وأن شعورا باللا جدوى شلني، أنني تركت أخاماس يقف ولم أعرف بعد ذلك إذا كان الزمام الذي يمسك به حين صمت ذكاء أم جبنا، وبدلا من ذلك

انطلقت للبحث عنها. قالت، لا يعرف المرء هذا غالبا يا لويكون، في مثل هذه الظروف.

صمتنا. قالت، حين طاردوني في المدينة، كنت خائفة، وركضت لإنقاذ حياتي، كما كان سيركض أي حيوان مطارد، لكن جزءا مني بقي هادئا هدوء الموتى وباردا، فقد حدث ما وجب أن يحدث. كان يمكن أن تسير الأمور بصورة أسوأ، قال صوت خافت في داخلي. أهو عزاء أن يخرج الناس في كل مكان عن اتفاقاتهم؟ أن الهرب لن ينفعك؟ أن لا يعود معنى للضمير إذا كنت تستطيعين بنفس الجملة، بنفس الفعل أن تخوني أو تنقذي؟ لم يعد ثمة سبب يستند إليه الضمير، لقد أدركت هذا حين جمعت عُظيمات أخي من الحقل، وثانية حين لمست العظام الدقيقة لهذه الفتاة في مغارتكم. لم أكن أنوي نشر هذه المعرفة بين الناس. أردت فقط أن أتبين أين أعيش. أنت تجلس في برجك وتجمع قبة السماء حولك يا لويكون، هذا مكان ثابت، أليس كذلك، أنا أفهمك، لقد رأيت كيف أن زاويتي فمك تتابعان الالتواء إلى الأسفل منذ كنت هنا. وضعي أسوأ أو أحسن، حسب ما ينظر إليه المرء. لقد بلغ الأمر أنه لم يعد ثمة نموذج لأن يوجد المرء في هذا العالم على طريقتي، أو لم يتشكل بعد، من يدري. ركضت في الشوارع، إبتعد الجميع عن طريقي، أوصدت جميع الأبواب في وجهي، فقدت طاقتي، بلغت المناطق الخارجية. الدروب الضيقة، أكواخ الطين الواطئة، كنت أسبق مطارديّ بزاوية بيت، هنا وقف رجل في الطريق، رجل قوي بشعر أحمر مشعث، لم يبتعد، بقي واقفا وتلقفني وسحبني بضع خطوات حتى باب بيته وحملني إلى الداخل. البقية تعرفها. منذ ذلك الوقت

أصبح لدي ثانية مكانٌ في هذه المدينة.

بعد ذلك بقليل الهزة الأرضية. دامت ثواني فقط، كان مركزها في جنوب المدينة حيث يعيش أكثر الناس فقرا، بينهم الكولخيسيون. ترنح برجي، لكنه لم يسقط. الشعور الذي لا يوصف حين تفقد الأرض تحت قدميك لا يزال يكمن في أعضائي، ركضت خارجا، امتلأت الشوارع بناس يصرخون، بدت نهاية العالم قريبة، لم يكن هذا مكتوبا في النجوم. كانت الأضرار في القصر محدودة، لم تسقط أسوار، وجد بعض الجرحى بين الخدم وميت واحد. لكن الملك كريون أصيب إصابة بالغة في حبه لذاته وشعوره بالخلود من خلال التصور بأن حياته يمكن أن تنطفىء بفعل حجر مايقع على رأسه صدفة. تجمعت في داخله ضغينة ضد الجميع، لا بد أن الخوف من الموت لم يتركه، أصبح سريع الاستفزاز وخطرا، وقد لمس أخاماس خاصة اللهجة الحادة الجديدة التي تكلم بها الملك. لن أتخلص من الشك بأنه كان هو ثانية، ليصرف الإنتباه عنه، أوحى للناس بأن الهزة الأرضية يمكن أن تكون قد أحدثت في كورينث بفعل فن ميديا الشرير. سألت ميديا عما إذا كانت تعرف هذا، فأومأت برأسها.

مرة كانت لدي الإمكانية أن أتحدث مع ليسا عنها، كان ذلك مساء الهزة الأرضية التي فاجأت ميديا وهي لدى اويستروس، وجدتها هناك حين وصلت بعد الجري بين الأنقاض لأطمئن على أريتوسا. كانت قد فقدت وعيها من الخوف، أحيت الهزةُ الكارثةَ التي دُمرت فيها كريت في داخلها ثانية، أعادت ميديا إليها وعيها، دلكت جبينها بسائل منعش ثم تركتها عندي، جرتها الهزة إلى جماعتها في الحي

المدمر، رجتني أن أطمئن على ليسا والطفلين . كان البيت الصغير لا يزال لصيقا بسور القصر، خرجتُ من المدينة الجريحة التي تئن إلى مكان للهدوء. أعطت ليسا للأطفال عشاء بسيطا، دعتني إليه، لاحظت كم كنت جائعا وكيف أشعرني الهدوء الذي يشع منها بالارتياح. إنها تنتمي إلى النساء اللائي سيدفعن الأرض ثانية لو أنها توقفت مرة عن الحركة، إنها تمسك حياة الناس الذين وضعوا في عهدتها بيديها بقوة، يستطيع المرء أن يحسد كل من سمح له أن ينشأ تحت رعايتها.

أخفت ليسا عن الطفلين قلقها على ميديا، كانا خاليي البال، مليئين بالحياة، أحدهما الذي يشبه ياسون أضخم من الأسمر، مجعد الشعر الذي هو بدوره أكثر حركة ومشاكسة من أخيه. تسابقا في الحديث عن الهزة الأرضية التي عاشاها كمغامرة. فجأة شعرا بالتعب وذهبا للنوم. ساد هدوء عميق فجأة. كنا نجلس في المطبخ الضيق، كانت نار الموقد لا تزال تتوهج. سمع حفيف حية المنزل في الرماد، شعرنا بالارتياح بعد النجاة من الخطر، ما سيأتينا به الغد لم يشغلنا بعد، صمتنا، ثم تحدثنا بأنصاف جمل حول ما مر بذهننا، أيضا عن ميديا، وظهر أننا، منطلقين من مواقع مختلفة، توصلنا إلى استنتاجات متشابهة. رأت ليسا مثلي أن شيئا يشبه السقم أصاب كورينث ولا أحد يريد أن يتعقب أصل الداء. كانت ليسا تخشى أن يعقب ذلك عاجلا أو آجلا تحول يؤدي إلى تدمير الذات، إنها تعرف هذا، ثم ستنطلق كل القوى المشؤومة التي تكبحها الحياة الاجتماعية المنتظمة، عندها ستكون ميديا مقضيا عليها. كانت المرة الأولى التي أتحدث فيها مع غريب عن الوضع في مدينتنا، الآن مضيت أبعد

وسألتها، أين ترى السبب في سقوطنا. رأت أن الجواب واضح. قالت، في تعاليكم. إنكم تضعون أنفسكم فوق كل شيء وفوق الجميع، هذا يحرف نظركم عما هو واقع، أيضا عن وضعكم الحقيقي. كانت على حق، وجملتها تتردد في أعماقي حتى اليوم.

كانت عواقب الهزة الأرضية أسوأ من الهزة نفسها. لم تعد العائلة المالكة تهتم إلا بنفسها، شُيع موظف كبير في البلاط سقطت عليه الأنقاض، بفخفخة كبيرة، أظهرت بريسبون المشؤوم الذي فقد سيطرته على نفسه تماما، في قمة مواهبه وفي نفس الوقت في بؤسه وانعدام ضميره، البذخ المقبض، فحتى هو كان يجب أن يعرف أن هذا التبذير سيلهب غضب الكورينثيين الذين فقدوا كل ما يملكون وكثيرا ماتعفن موتاهم طيلة أسابيع تحت الأنقاض. لم تجد ميديا بالطبع بتحذيراتها أذنا صاغية، لكن حتى الأطباء حول كريون حذروا، يجب إخراج هؤلاء الموتى ودفنهم، كانوا يعلمون من خبرتهم أنهم يشكلون خطرا على الأحياء، وبالفعل ظهرت أولى حالات الوباء قرب المناطق المدمرة مباشرة، حيث يسكن الناجون في مساكن مؤقتة مع الجرذان في جوار الموتى.

كيف وقف شعر رقبتي حين أوعز أخاماس بمناداتي وأتمنني على سر الدولة: حل الطاعون في المدينة. لا أنسى هذا. مزلزلا سألت أخاماس، ماذا يفكر هو، ماذا يفكر الملك أن يفعل، قال ببساطة، كما لو أن الأمر أكثر الأشياء بديهية في العالم: نغادر المدينة. لقد اتخذ اللازم لكبح اضطراب يمكن أن يحدث في مهده. جرى تعزيز قوات الأمن. ثم قال أخاماس جملة لم أستطع حتى اليوم أن أخبر ميديا بها.

قال: وسيكون من صالح ميدياك لو ابتعدت هي أيضا عن كورينث.

فهمته في الحال. أعرف هذا التفكير، لقد نشأتُ معه، إنه فيّ أيضا، هممتُ: لكنكم لن... معتقدا بالخرافات لم أستطع أن أنطق بشكي، فهم أخاماس بهذا الشكل أيضا، قال بجفاف: لم لا.

الطاعون ينتشر. فعلت ميديا في هذه الأسابيع أكثر مما فعله أي شخص آخر، يطلبها المرضى، فتذهب إليهم. لكن كورينثيين كثيرين يدّعون أنها تسحب المرض خلفها، وأنها هي التي جلبت الطاعون إلى المدينة.

لا يمكن ألا تكون قد سمعت هذه الأصوات. حذرا، بصورة غير مباشرة أتحدث عن حاجة الناس أن يحملوا ثقلهم شخصا آخر. من كل مائة سجين سيُضحى أولا بواحد، لإرضاء الآلهة وإقناعها بسحب أيديها المعاقبة عن المدينة. تقول ميديا، هذا لن ينفع. لن تسمح أيضا به. تسري برودة فيّ. أستحلفها ملحا ألا تخرق قوانين كورينث. فتقول باقتضاب، هذا أحب إليها لو لم يكن عليها أن تفعل. أقول لها، يا ميديا إذا لم يضحوا بالسجناء سيبحثون عن ضحية أخرى. فتقول، أعرف. أقول، هل تعرفين أيضا كم يمكن أن يكون الناس وحشيين. تقول، نعم. لكن لكل واحد حياة واحدة فقط، أقول لها.

فتقول، من يدري.

أحدق فيها. ماذا أعرف عن هذه المرأة، ماذا أعرف عما تعتقد. أريد أن أسألها عما إذا كانت ثمة عقيدة تحرر الذين يعتنقونها من الخوف من الموت الذي يستولي علينا. أراها في ضوء الصباح المتصاعد فلا أسألها. أفكر أول مرة، ربما كان لديها سر يخفى علي.

ما أتمسك به هو القناعة بأننا لا نستطيع أن نفلت من القانون الذي يسري علينا تماما كما على مسار الكواكب. ما نفعله أو نتركه لا يغير شيئا في ذلك. إنها تقاومها. هذا سيقضي عليها. تستطيعين أن تفعلي ما تشائين يا ميديا، أقول لها، لن ينفعك، لن ينفعك حتى آخر الأزمان. ما يدفع الناس أقوى من كل منطق.

تصمت.

يتوارى الليل، لا نزال نجلس هنا. تشرق الشمس، تومض سطوح المدينة وتلمع. لن نجلس هكذا ثانية أبدا. أدرك الآن، ماذا يعني أن يكون قلب الواحد مثقلا. لا أرى مخرجا لا يكون كارثة. قلت ما استطعت أن أقوله. ما سيحدث كان قد تقرر بدوننا.

نرشق بقية النبيذ من أقداحنا في اتجاه الشمس ولا نقول لبعضنا ما تمنيناه. لم أتمنى شيئا. أعتقد أن عجلة قد جُعلت تدور ولا يستطيع أحد وقفها. كانت ذراعاي قد شلتا. هل على أن أتمنى أن تتعب ميديا أيضا مثلي.

تقول، وإذن أنا ذاهبة. أقول، إذهبي. أقف على الحاجز وأتابعها بنظري كيف تمضي عبر الساحة التي تحيط بالبرج والخالية مثل المدينة كلها. أفرغها الخوف من الطاعون.

فقد الاحتفال كل الصفات الطقسية،
وهو ينتهي نهاية سيئة حين يعود إلى أصوله العنيفة.
لم يعد ثمة عائق أمام القوى الشريرة،
وإنما حلفاء لها.

رينيه غيرارد، المقدس والعنف

ميديا

أنتظر. أجلس في الغريفة عديمة الشبابيك التي خصصت لي وأنتظر. أمام فتحة الباب التي يسقط منها بصيص نور يقف حارسان مديران ظهرهما إلي. في القاعة الكبيرة يجلسون لمحاكمتي.

كل شيء واضح الآن. إنهم يعنونني. ما كان علي أن أذهب إلي عيد أضحياتهم، قالت ليسا، كان غطرسة تامة. لم أعد أعارضها كما كنت أفعل في الصباح، متى كان ذلك، أمس، أول أمس، قبل ثلاثة أيام، حين أفقت مبكرا ووجدتني مستعدة لقبول دعوة كاهنات أرتيمس والذهاب كغريبة إلى عيد الربيع الكبير للكورينثيين. غطرسة؟ لا أدري، أقرب إلى شيء يشبه التفاؤل، ما شعرت به في ذلك الصباح. قوة على المصالحة. يد ممدودة، فكرت، لماذا سيعرضون عنها. اليوم أعرف لماذا. لأنهم يستطيعون أن يخففوا من خوفهم من خلال الحنق على الآخرين فقط.

كان صباحا جميلا. حلما، تبدد مع اليقظة، فتح منفذا، شعور بالراحة تدفق فيّ، دون سبب، لكن الأمر دائما هكذا. أزحت عني فروة الخروف التي كنت أنام تحتها منذ غادرت كولخيس، قفزت من سريري، صدمتني برودة الأرض الطينية، بمتعة وضعت قدما أمام الأخرى، فردت ذراعي، درت حول نفسي، وقفت في الضوء الذي دخل من خلال الباب وكان لا يزال خافتا. هنا سبح الهلال في أزرق داكن، كاسة مفتوحة مائلة قليلا، متناقصة، تذكرني بسنواتي المتناقصة، قمرة كولخيسية، مُنحتْ قوةَ أن ترفع الشمس كل صباح فوق حافة

الأرض. وكل يوم الخوف حول ما إذا كانت الأثقال لا تزال صحيحة، ما إذا كان تناسقها قد اضطرب خلال الليل، أو زُحزحت مساراتها المحددة قليلاً فتواجه الأرض بسبب ذلك أزمنة الرعب التي تتحدث عنها القصص القديمة. ولكن ستكون القوانين الطيبة التي تربط مسار كوكب إلى كل الكواكب الأخرى، لا تزال نافذة هذا اليوم، نظرت مسرورة كيف امتلأ الأفق الليلي تدريجيا بضوء النهار. سيكون هذا اليوم على كل حال مثل الذي سبقه والذي سيعقبه، أدوات لويكوني الدقيقة أيضا لن تستطيع أن تقيس المسافة الضئيلة، التي يقترب فيها القوس الذي تقطعه الشمس فوق كورينث من السمت الذي سيكون قد بلغه في تحول شمس الصيف.

ثم لن أكون هنا، لن يلاحظ ذلك هيليون، إله الشمس ولا عزيزتي إلهة القمر، ببطء، ولكن بشكل نهائي تخليت عن الاعتقاد بأن مصائرنا البشرية مرتبطة بسير النجوم. بأن أرواحا تشبه أرواحنا تسكن هناك، تمس وجودنا، حتى لو كان ذلك بإرباكها الخيوط التي تمسك بها، في غير صالحنا. أخاماس، الفلكي الأعلى للملك يفكر مثلي، أعرف هذا منذ نظرة تبادلناها في حفلة أضاحي. حتى لو تظاهر كلانا بغير هذا، لأسباب مختلفة بالتأكيد وبطريقة مختلفة. بدافع من عدم اكتراث بعيد الغور أزاء الكل يتظاهر بأنه الأكثر حماسا بين كل خدام الآلهة، أنا بالتهرب من الطقوس كلما استطعت، لكني أصمت حين يكون عليّ أن أشارك فيها، بدافع الإشفاق علينا نحن الفانين، الذين حين نستغني عن الآلهة، نعبر منطقة من الوحشية لا يستطيع كل شخص أن يفلت منها. يفكر أخاماس انه يعرفني، لكن تعاميه يمنعه

أن يعرف أي شخص، وأقل من ذلك نفسه هو. الآن يريد أن يمرع في خوفي. يجب أن أقاوم خوفي. يجب ألا أتوقف عن التفكير.

في ذلك الصباح الذي أصبحت تفصيلاته ثمينة جدا سمعت ليسا في الجوار تنفخ في النار، واللهب يمتد مطقطقا إلى أغصان الزيتون التي وضعتها بعناية في طبقات، تضع قدر الماء على الموقد، وتبدأ تعد العجين لأرغفة الشعير بضربات مصطفقة لتجعله لينا متجانسا. على الحصران التي نسجتها والتي تريح قدميّ ذهبت إلى صندوق حاجياتي، بينها الثوب الأبيض الذي لبسته في كولخيس في الأعياد الكبيرة، الذي حملته لي ليسا معها والذي لم أكد ألبسه في الفترة الأخيرة. أخرجته، نفضته ليصبح صقيلا، تلمسته. ربما كانت قد رقت خيوطه بمرور السنين، لكنه كان في حالة جيدة، غير مهترئ. لم أملك نفسي من الضحك كيف وقفت عارية على الحصيرة تفحصت نفسي بالنظرات أولا ثم تلمستها باليدين، لم أعد شابة، ولكن لحمي لا يزال صلبا، ازدهر في يدي اويستروس، لم أعد نحيفة، أصبح الوركان أكثر ثقلا، كان على يدي أن ترفعا ثديي، لكن بشرتي احتفظت بالسمرة الداكنة الجميلة، مفاصل يدي وقدمي بقيت نحيفة، رسغان مثل عنزة، يقول اويستروس، وكان شعري مجعدا وكثيفا ثانية مثلما كان دائما. لم تمض سوى أسابيع قليلة منذ أن استطعت أن أنتزع الخصلات من رأسي وسبحت خصلاته في حليب الحمار الذي غسلته ليسا به. كان كلانا يعرف أن ليس ثمة دواء للهم الذي جعل شعري بعد الحمى الشديدة يتساقط والذي لم أستطع التحدث عنه. كان ألما من الحياة، لم يصبني وحدي، ولا أيضا ايفينوي المسكينة

وحدها ذلك الذي ولدته عظامها في المغارة، شعورا انتشر فيّ وأصبح أكثر عمقا وقتامة، تزايد من خلال كراهية أغاميدا، خيانة بريسبون وانعدام ضمير أخاماس الذين حرضوا معا الجمهور الغامض ضدي. جاءت الانعطافة حين ساقوني في شوارع المدينة. عرفت فجأة أنني أريد أن أعيش. ثم اويستروس. اويستروس سبب قوي. لا أعيش هذه الولادة الجديدة أول مرة، والآن يمسك شعري بي أيضا بمتانة. استطاعوا أن يجروني من شعري في شوارع المدينة.

بعد أن غطست وجهي ثم ذراعي في الإناء الذي ملُئ بماء النبع، تركت الثوب ينزلق على جسدي، تفحصت سقوطه الرخو، ربطت شعري إلى الخلف بالشريط الأبيض للكاهنة، بما يلائم يوم العيد، وذهبت إلى ليسا التي جلست بظهرها إليّ تخبز على الموقد أول وجبة من الأرغفة التي نشرت تلك الرائحة المتبلة، الحادة قليلا التي تعلن لدينا في الوطن عن قدوم الأعياد. بدأ عيد الربيع بالنسبة للكولخيسيين والكولخيسيات، لكن عاداتنا رغم أننا نتبعها بدقة، ربما بدقة أكبر مما ينبغي، لا تحدث هنا سوى انعكاس ضعيف لمزاج العيد ذاك الذي ولدوا فيه في كولخيس من جديد دائما. وكان ذلك الإنعكاس الضعيف مع ذلك أفضل من لا شيء، هكذا تشعر الغالبية، وأنا لا أتدخل في مشاعرها.

التفتت ليسا، رأتني في ثياب العيد، ذعرت. ما إذا كنت أريد أن أخرج اليوم هكذا. نعم. ولكن إلى أين؟ إلى عيد أرتميس للكورينثيين. صمتت ليسا. نظرت إليها بإمعان أكبر، لقد تقدمت في السن، أصبحت أكثر تكورا، وأكثر صلابة في نفس الوقت. إنها هي التي

تحفظ في ذاكرتها كل تفصيل من تفاصيل طقوسنا المعقدة أحيانا، تنقلها إلى الأصغر سنا وتصر بلا مهادنة على التمسك بها. لم توافق أبدا على أن تذهب كولخيسية، وأنا بالذات، إلى عيد للكورينثيين، لن تعترف أبدا بسببي، لن تعترف بأن موقف مصالحة يمكن أن يكون مفيدا لنا نحن الكولخيسيين. قالت بمرارة، إنني أبتعد من أجل لا شيء عن الكولخيسيين، فلن يشكرني الكورينثيون على ذلك أبدا. لقد كانت على حق، وإنني كنت واهمة. وكان علي مع ذلك أن أفعل الشيء ذاته.

اجتذبت رائحة الخبز الطازج ولدي فجاءا مثل فلوين يشمان قشا، قلت، وتحالفا على الفور مع ليسا، ليس هذا صحيحا، صرخا، ولعبنا الأدوار التي لعبناها مرارا بمتعة مرة أخرى، الثلاثة ضدي، تخاصمت أصواتنا بينما كانت عيوننا تضحك. ثم أدرك الطفلان أنني أمثل، سكتا، أحاطا بي، تلمسا قماش ثوبي بأصابعهما، طقطقا بلسانيهما إعجابا، أشعرني هذا بالارتياح، كم يمكن أن يدوم إعجاب هذين الطفلين بالأم .

ثم قطعا الرغيف الأول، ملآ به فمهما، أنا أيضا شعرت بجوع شديد فبدأت آكل وأنا أنظر حولي في المطبخ، رأيت كل قطعة واضحة كما في المرة الأخيرة، كل أداة، أواني الخزف، القدور على رف الحائط، المنضدة الخشبية المقشطة، هيأة ليسا الأليفة وخاصة الطفلين، اللذين يختلفان عن بعضهما كما لو لم يولدا من نفس الأم. مايدوس، الأكبر، أشقر، أزرق العينين، كان ياسون يحب أن يقول له دائما "إبني" ويركب معه الخيل ساعات طويلة في الحقول والذي لم يشمله

بالاغتراب الذي حل بيننا. وأنا أحاول أن أتجنب تكدير الإعجاب الكبير الذي يحمله هذا الطفل لأبيه، أكبح هذا الألم. على العكس منه فيريس، صغيري، مكور وصلب مثل جويزة بنية، له رائحة العشب، صوفي الشعر، داكن العينين، يستمتع بالأكل مثل أي فعل آخر، أية لعبة، بهذا الوجه الملتم الذي أحبه فيه، بالتبدل السريع بين الضوء والظل على ملامحه، بقدرته على أن ينتقل بين لحظة وأخرى من الجد إلى الخفة، أن يبكي بيأس ويفقد رشده من الضحك. هجم علي كلاهما، يريدان أن آخذهما معي إلى الاحتفال، احتجت إلى ذريعة. لم أرد أن يكونا معي في احتفال الكورينثيين.

إنه لقضاء أن تنتابنا نشوة ونحن نقف أمام الهاوية. في ذلك الصباح سقطت عني كل الأثقال، عشتُ، كان طفلاي معافيين ومنشرحين وقد تعلقا بي، شخص مثل ليسا لن يتركني أبدا، ضم الكوخ المتواضع شيئا يشبه السعادة، كلمة لم تخطر لي منذ سنوات طويلة. ربما يوهب ذلك الذي يصبر ويستطيع الانتظار ربحا لقاء كل خسارة، وفرح لقاء كل ألم، مرت في رأسي مثل هذه الأفكار وأنا أصعد الشارع إلى معبد أرتميس بين الكورينثيين الكثيرين الذين يريدون الذهاب إلى عيد الأضاحي.

ولكن ما هذا. ما الذي يرغمني، الآن بالذات، هنا بالذات، أن أستعيد هذا الصباح الذي يبدو وقد مضى عليه دهر من الزمن قطعة قطعة. من خلال فتحة الباب رأيتهم توا يمرون بي جميعا، سمعت خطواتهم تقترب، الحراس قرب بابي، من المضحك أنهم مسلحون برماح، هؤلاء الرجال الشبان المحرجون كانوا يستطيعون أن يحجبوا

عني رؤية القادمين، لم يفعلوا. رأيتهم جميعا. الملك كريون بوجه مقطب، في معطف القضاء، محاطا بحراسه الشخصيين ومتبوعا من قبل الشيوخ الذين لهم الحق أن يصدروا الأحكام. الشهود، بينهم الكاهن الأعلى لأرتميس، بالطبع البائس بريسبون أيضا الذي كان يتحكم في سير الاحتفال دون مشاكل، الذي يدعى أني أربكته. ثم، كواحدة من النساء القليلات، أغاميدا. كانت الوحيدة التي ألقت نظرة على غيهب سجني، نظرة متعجرفة، ظافرة، مليئة كراهية. يمكنهم أن يقطعوني أمام عينيها، لكنها لن تتخلص من كراهيتها. كان الأخيران ياسون وغلاوكا، قفز قلبي. كان يشد بيده على ذراعها ويقودها، وقد بدت شاحبة ومنهكة، نظر كلاهما إلى الأمام دون التفاتة، كان كلاهما يزم شفتيه، يا له من زوج. وددت أن أصيح بالبقية من تهوري السابق، هيه ياسون، أين وقعت. وإذن صحيح ما يتحدث المرء به عنه، سيتزوج المسكينة غلاوكا ويحكم كورينث بعد موت كريون. يجب أن يتخلصوا مني، ليس لديهم خيار.

كنت هادئة حين صعدت إلى المعبد. كان علي أن أفعل ذلك، هذا يهدئني دائما، وحتى الآن، رغم أن هذا الهدوء هو أقرب إلى الجمود. كورينث المدينة الجميلة الوحشية. أبصرتها مرة أخرى، قال شيء في داخلي، المرة الأخيرة، أم أنني أتوهم هذا الآن. ركضت وسط ناس يرتدون ملابس احتفالية، عرفني الكثيرون، بعضهم حياني، الغالبية نظرت جانبا، كان الأمر لدي سيان. حمل الكثيرون إشارة الحزن على ملابسهم، لم تفلت عائلة من الطاعون، انه ينحسر، كان خبرا مغرضا من القصر. كلما صعدنا رأينا الطبيعة حول المدينة بشكل أوضح،

خضرة الربيع التي ستجف قريبا، ورأينا العربات التي نقلت جثث الليلة الأخيرة إلى النهر، والقوارب تنقلها إلى مدينة الموتى. لم يرد أحد أن ينتبه إلى حمولات الموتى. كان ذهب أبراج كورينث بالنسبة لي مثل مظهر للموت، وقطيع الثيران العشرين التي خصصت للتضحية والتي سيقت من طريق آخر على الجبل، بدا لي خوارها الخائف الذي وصل إلينا مثل إشارة كارثة. كلما اقتربنا من منطقة المعبد تبدد الشعور بالارتياح لذلك الصباح، الانقباض الذي خيم على الموكب البشري، هبط علي أيضا. ألم نكن جميعا ضحايا أرغمت على التحمل الصامت تسير متباطئة إلى المذبح. قلت لنفسي، أنا ميديا، الساحرة، إذا ما أردتم هذا. المتوحشة، الغريبة. لن تروني نليلة.

ولكن أجل. الآن على مصطبة انتظاري في هذه الغريفة، التي تشبه سجنا، والتي يمكن أن تتحول إلى سجن بسرعة، أسأل نفسي أما كان تجنب هذه النهاية ممكنا. أكانت قد وجدت حقا سلسلة من الظروف ساقتني إلى هذه المصطبة ولم أكن أستطيع شيئا حيالها، أم أن شيئا فيّ لا أملك التحكم فيه دفعني في هذا الاتجاه. لا جدوى من التفكير في ذلك الآن. لكني سأحتمل بسهولة أكبر القضاء عليّ من قبل قوى خارجية، هذا صحيح. أسهل، أصعب - كلمات من حياة سابقة.

اويستروس والعزيزة أريتوسا التي ألقاها المرض طريحة أيضا والتي كان عليّ أن أغادرها، قلبنا نحن الثلاثة تجاربنا في كورينث يمنة ويسرة في أحاديث ليلية طويلة. كيف أن هذه المدينة مطبوعة على أن تقلب فجأة جهتها المضيئة، المشعة، المغرية إلى كئيبة، خطرة، مميتة. كيف يرغم هذا الخطر الدائم السكان على أن يتخذوا اجراءات وقائية

ضده، أن يقابلوا بعضهم في أقنعة، يحتقن بينهم غضب عميق كما اتضح. قطع اويستروس تأملاتي حول ما إذا توقف عليّ أن أوقظ فيهم مزاج المصالحة. هل تدرين ما هو الشيء الوحيد الذي كان سيساعدك؟ قال. لو أنك جعلت نفسك غير مرئية مثلنا، أنا وأريتوسا. في حياة خفية، لا تنطقين بكلمة، لا تظهرين تقطيبة، حينذاك يحتملونك. أو ينسونك. أفضل ما كان يمكن أن يحدث لك. لكنك لست حرة في هذا.

أنه على حق. ما الذي يتشاورون فيه طويلا هكذا. أيكونون غير متفقين جميعا على رأي واحد. هل يوجد اعتراض بالفعل. ولكن ممن. هل يمكن أن يكون عزيزي ياسون قد تنبه وهو يعترض على حكمهم؟ ولكن لماذا يكون عليه أن يفعل. ليفعل شيئا حسنا؟ غير متوقع. يأتيني أحد الحراس بكوب من الماء. أشرب بنهم. كم أنا عطشى. كم أبحث في ملامح الرجل الشاب عن أثر للعطف. لا أجد شيئا. إنه يقوم بما كلف به. لا أجد أيضا نفورا في وجهه، عدم اكتراث وحسب. استعاد الكورينثيون توازنهم بعد اضطرابات عيد الأضاحي. في ذلك الصباح، في الصف الطويل إلى معبد أرتميس شعرت بقوة مدمرة تتجمع في جمهرة الناس التي نفست عن نفسها في الخصومات، في المصادمات على حافة الطريق، أكثر من ذلك في الصمت المر للغالبية، في حركتهم المتشنجة، في وجوههم الباردة المضطربة المنغلقة. شممت بخار الخوف الذي تعلق مثل سحابة فوق الموكب، بدأت أحس بالقبضة الصلبة التي تضغط على معدتي، إنها تضغط الآن أيضا، أقاومها كما تدربت منذ الطفولة، أغمض عيني وأراني أمضي دائما

على طول نفس النهر الذي يشبه نهرنا فاسيس، بسفوح شواطئه الرفيقة، بالنباتات الكثيفة، بوجوه ناس ملتفتين إلي، ويخف ضغط القبضة ببطء تدريجيا. حين نصحت مرة غلاوكا بهذا التمرين، أنفجرت بعد وقت قصير بالبكاء، لأنها لم تستطع أن تتحرر داخليا من التصور أن تمضي في الطريق الصحراوي الطويل المجدب باتجاه مدينة الموت. لم أستطع أن أساعدها، كانت قدرتي على الإشفاق قد تخلت عني.

أتى الكثيرون في الموكب بأضاحي متواضعة معهم، كانت المؤنة في المدينة بعد جفاف السنوات الأخيرة قد أوشكت على النفاد، لم يستطع أحد تقريبا أن يأتي للإلهة بأكثر من حزمة سنابل، غصن فيه زيتون، شيء من التين المجفف، لم يأتِ أحد بجدي كما في السنوات السابقة. ستكون الثيران العشرون التي وصلت القمة قبلنا وسيقت دون إبطاء إلى المذابح، للكثيرين أول لحم يأكلونه منذ أسابيع. أنا أيضا كنت جائعة وضبطت نفسي أفكر في أن أستل سرا فيما بعد شيئا من لحم الأضاحي لولديّ. سمعت خلفي كورينثيين يتحدثان بصوت واطئ عن أن ثيران الأضاحي قد أطعمت من المخازن السرية التي أنشأها القصر والتي ادعى أحدهما أنه يعرف مكانها، وهو ما بدا أنه أرعب الآخر، لأنه استحلف رفيقه ألا يبوح لأحد بذلك، وله قبل الكل. من يملك هذا السر، دون أن يكون مخولا بذلك، معرض للموت. ها، قال الثاني بوقاحة، ولكن قبل أن يمسكوا به سيصرخ بصوت عال كيف يعيشون في القصر في أوقات الطوارئ هذه، ابن اخته مساعد طباخ لدى العائلة المالكة، إنه يعرف. ولكن قبل أن يستطيع الخائف خوف

الموت أن يستدرجه إلى مزيد من التفاصيل قطع كلامه الخوار الوحشي للثيران الذي جعل دماءنا تجمد في عروقنا. كانت قد طعنت جميعها مرة واحدة من قبل كهنة أضاح مدربين.

سمعت كثيرا من الفظائع، ولكن لم أسمع أبدا أفظع من هذا الخوار للمخلوقات المضحى بها، كان كما لو أنها تصرخ بضائقتنا جميعا وألمنا وشكوانا إلى السماء. وقف الموكب برجة واحدة. حين ساد الهدوء تحرك بسرعة إلى الأمام، صعودا، حتى رأينا عاليا فوق أسوار المعبد صورة الإلهة أرتيمس. مشهد جعل الكورينثيين يصابون بالذعر، وهو ما كان يجب أيضا. ارتفع هتاف، تضخم: كبيرة هي ارتيمس إلهة الكورينثيين. لم أشارك في الهتاف وأثرتُ استياء واحدة من النساء العجائز اللائي شكلن كتلة متراصة وتدافعن وقتا طويلا قريبا مني، فحت في وجهي عما إذا كنت أستكثر أن أمدح إلهتهم. قلت، كلا، لكن المرأة لم ترد أن تسمع، حركة عنيفة من الجمهور فرقتنا. شعرت بعدم الارتياح، ولكن لم تخطر لي فكرة العودة. لم لا في الواقع.

ترى أغاميدا إنه شكل من أشكال العجرفة ألا يجاب على الكراهية بالكراهية وأن يضع المرء نفسه فوق مشاعر الناس العاديين الذين يحتاجون إلى الكراهية تماما كما يحتاجون إلى الحب، والأرجح أكثر. لا تتكلم هكذا معي بالطبع، إننا نتجنب بعضنا منذ وقت طويل، ناقلات للحديث يأتينني باجتهاد بما تنشره عني. إلتقيت بها ثانية في الاحتفال. ألقت بكلمة واحدة إلي حين خرج الاحتفال عن النظام، حين تحول إلى مرجل يغلي بالعنف ووقفت قبالتي فجأة في فناء المذبح: غول.

تستطيع الكلمات المنفردة أن تتثبت فيّ دائما. تقف هي الآن،

أغاميدا، ما أمكن أمام الشيوخ وتقول لهم هذه الكلمة التي انتظروها عني والتي سيتلقفونها شاكرين. لن يصيبهم أفضل من أن تقول كولخيسية عني بالضبط ما يفكرون فيه منذ وقت طويل. ولا أستطيع أن أتهمها، أغاميدا، بالمغالطة. ما تنشره عني، تشعر به أيضا، لا يمسها أثر من شك. قلت هذا لاويستروس الذي يشعر بنفور عميق من أغاميدا، هنا غضب. لا ينبغي أن أتمثل دائما مشاعر الآخرين، قال لي بحدة.

أعتقد أن كلانا كان يعرف أنني كنت داخل الفخ. عرَفَتْه ليسا أيضا. تركتني أذهب اليوم مبكرا بوجه حانق مبتل بالدموع، لم تسمح لي أن أودع الأطفال. أنا واثقة أنها أبلغت أرينا. أرينا التي اختفت منذ أسابيع وأشيع أنها ذهبت إلى الجبال مع مجموعة صغيرة من النساء. ها هي قد وقفت فجأة، قد أصبحت ضامرة، بنية اللون داكنة، بشعر مشعث. طلبت مني أن أذهب معها. أرادت أن تنقذني. أحسست بانجذاب كبير في داخلي لأتبعها، في لحظات قليلة تدحرجت أمامي الحياة التي سأعيشها عندئذ، حياة شاقة متقشفة، ولكن حرة، وتحت رعاية أرينا والنساء الأخريات. قلت، لا يمكن يا أرينا فقالت: لم لا. لم أستطع أن أشرح الأمر لها. عودي إلى رشدك يا ميديا! قالت أرينا بإلحاح. لم يتحدث أحد معي هكذا حتى الآن. لا يمكن، قلت مرة ثانية. رفعت أرينا كتفيها يائسة، استدارت ومضت.

إنني الآن متعبة، لم أكد أنام. الليلة المضطربة للاحتفال تغلغلت في عظامي. مضى النهار هادئا، جيء إلى الإلهة بأفضل قطع الحيوانات المضحى بها في احتفال كبير. ثبت المرء الخصى، في ثلاثة صفوف

فوق بعضها، رأيت أن أغاميدا كانت الكولخيسية الوحيدة التي نجحت في أن تختلط بالفتيات من كورينث اللائي نظفن الخصى ووضعنها على صورة الإلهة، ليحملنها بعدذلك، كواعدة بخصب دائم، في شوارع المدينة. بينما ثبتت قرون الثيران على أسوار المعبد وأشعلت النيران على جبل الأضاحي، ليشوى اللحم فوقها، أمضى الشعب الوقت في الرقص والغناء والألعاب السحرية. كان بريسبون قد أعد ألعابا احتفالية، لم ترَ كورينث مثلها من قبل. دفع حشودا من المشاركين في ثياب خاصة إلى ساحة الإحتفال الخضراء، ذكروا الكورينثيين بأعمالهم العظيمة، خلق جوا إنقلب إلى جنون. جاء رجلان مقطوعا الأنفاس من المدينة قبل حلول الظلام بوقت قصير، حارسان كما يرى المرء من ملابسهما. أتيا بخبر أن فرقة من السجناء حررت نفسها من السجن بمساعدة أسلحة مهربة. واستغلت خلو الشوارع من الناس ففتحت في مدينة الموتى في الجهة الأخرى عددا من القبورالأكثر غنى وسرقتها. بعد الصمت التام انفجر عويل بين المحتفلين كان قد انتظر مبررا وقتا طويلا. حدث ما كان ينبغي أن يحدث. بحث الحشد عن ضحايا ليطفئ عطشه إلى الإنتقام. مترددا ماج هنا وهناك، فكرت برعب أن بعض الكولخيسيات قد تبعنني، لكن لم يكن هن من هُجم عليه. تذكر المرء السجناء الذين التمسوا اللجوء من عسف أسيادهم في المعبد وقاموا هناك بالأعمال المتدنية، يجب أن ينتهي هذا، عليهم أن يدفعوا ثمن جريمة الآخرين. أسرعت إلى بوابة المعبد، توسلت إلى الكاهنات الخائفات، فتيات في سن شابة جدا وغالبا من عوائل مرموقة، ألا يسمحن بذلك، أن يغلقن الباب بالمزلاج،

أن يضعن خلفه دعامة. أطعنني حيث لم يكن هناك من يعطيهن الأوامر، ضرب الجمع على الباب، تسللت عبر الباب السري خلف المذبح إلى الخارج وحاولت أن أجعلهم يسمعونني، لا يجوز انتهاك حرمة اليوم الكبير للإلهة، صرخت في الأفواه المفتوحة، في الوجوه التي شوهتها الكراهية، ظننت أنني من خلال خوف أكبر من غضبهم أستطيع أن أخمد رغبتهم في القتل، هنا تقدم عجوز مني، أدرد، وجه مغضن محترق، هز قبضته في وجهي. لقد جلب الأسلاف للإلهة بشرا كأضاح، وقد أعجبها هذا جدا، ولماذا لا يعود المرء إلى التقاليد القديمة. هدر الجمع مؤيدا، وقد خسرت. بدأوا يشتمونني، يقتربون مني، إذا كانوا سيفعلون حقا، فكرت، إذا كان لا بد من هذا، فليكن الآن في الحال، وليكن هنا. هنا كانوا قد كسروا باب المعبد، كانت الكاهنات قد هربن. جلس السجناء أمام المذبح خائفين، إمتدت أيد كثيرة إليهم، كنت قد دُفعت مع الجمع إلى داخل المعبد، ضيقوا عليّ حتى أنني وجدت نفسي فجأة أمام القائد وجها لوجه، رجل متوحش، لم يخف شماتته. زمجر، ماذا تقولين الآن، قلت بصوت خافت، خذوا واحدا فقط، واحدا فقط، زمجر، لم هذا؟ قلت ، أسلافكم اختاروا إنسانا واحدا فقط أتوا به ضحية للإلهة، كل ما عدا ذلك هو إثم، والقتل في المعبد يعاقب بشدة. تعجبوا، ترددوا، بدأوا يتشاورون فيما بينهم هامسين، كان على العجوز الذي تولى الحديث أن يقرر، تمطى، وأومأ برأسه أخيرا. سحبوا رجلا من صف السجناء، قاوم بضراوة، صرخ وتوسل، تحجج بحقه أن يجد حماية في المعبد، كان رجلا طويلا خشنا. برأس حليق ولحية عظيمة مجعدة، لن أستطيع أن أنسى

وجهه، عينيه المحمرتين المصوبتين نحوي. جر إلى المذبح، لم التفت جانبا، نظرت كيف طعنه الرجل المتوحش. سال الدم، دم بشري، في مجرى الضحية.

أنا مسؤولة عن موته. حدث ما لا يمكن إصلاحه، وقد شاركت في اللعبة. أنقذت الآخرين، لم يعنِ هذا شيئا لي. لماذا هربت من كولخيس. بدا لي أمراً لا يطاق أن أوضع أمام الاختيار بين شرين. أنا المغفلة. أستطيع الآن أن أختار فقط بين جريمتين.

لا أدري كيف جئت إلى فناء المعبد، إلى تمثال ارتميس. ما وعيته أولا كانت خصي الثيران المضحى بها التي ثبتت على الإلهة، كما لو أن ثدييها تكاثرا فغطيا جسمها كله. معلقة مقرفة. لقد فاحت نتانتها، نتانة خصي الثيران. بصقت عليها. إذا كان سيَطْعنُني أيضا، الكورينثون الرقيقون، كانت تلك هي اللحظة المناسبة، كنت مستعدة. لكني لم أكن قد عرفتهم حتى الآن. أصبحوا يتجنبونني مثل مجذومة. رسمَتْ يدٌ غير مرئية دائرة حولي لم يتجاوزها أحد منهم. لا أعرف كم وقفت هناك، عند أقدام صورة أرتميس، هم في نشوة الدم وأنا في صحو الموت. كنتُ مخيفة، قالت لي فيما بعد ليسا التي تبعتني ومكثت سرا قريبا مني. حلت الظلمة، قُطع اللحم الناضج من السفافيد، نتف، تضاربوا من أجله، اختطفوه من أيدي الأطفال، اللحم الذي كان لا يزال يدمى أكلوه نيئا. هكذا يوجد الداخل المتعطش للدماء تحت القشرة الخارجية الأليفة. أشعر بالرعب. أنا في يدهم.

شعرت أن مئة زوج من العيون ترصدني من نصف الظلمة الوامضة، انسحبت من دائرة النار، لم يمنعوني. تعثرت بأدغال،

تقيأت، تابعت التعثر، هابطة، عبرت بستان زيتون، أخيرا لم أعد أر نارهم وأسمع ضجيجهم. كان الهلال مرافقي. في منخفض سقطت على الأرض، ربما نمت، ربما كنت مغميا عليّ. حين أفقت تصارع فوقي تماما في سماء الليل وحش قاتم مع القمر، قضم منه بنهم لقمة كبيرة وتابع الهجوم عليه. لن يكون هذا الرعب هو النهاية.

إلهة قمرنا قضي عليها من السماء، في تلك الليلة التي كانت فيها أكثر ما تكون مترعة، أكثر ما تكون مانحة للعزاء، أعظم ما تكون. رعب غير معروف تغلغل فينا نحن الكولخيسيين حتى الأحشاء وجعلنا نخشى نهاية العالم، رعب أعمق من ذلك الذي أحس به الكورينثيون الذين لم يستطيعوا أن يروا في مشهد السماء المخيف غير عقوبة من الآلهة، لذنب لم يرتكبوه هم، وإنما كل أولئك الذين جرجروا آلهة غريبة إلى مدينتهم وأغضبوا بذلك آلهتهم. وكي لا يتوجب عليهم أن ينتظروا الهول الذي سيعقب القضاء على القمر مرتعدين، إنطلق الرجال الشبان من منطقة المعبد للبحث عن المذنبين في غضب الآلهة الذي لا حدود له ولمعاقبتهم.

لن يتهيأ لي أن أسأل أخاماس لماذا تكتم بشدة على علمه بخسوف القمر المقبل، لماذا منع، مهددا بعقوبة الموت، فلكييه الذين كانوا مطلعين، أن يبلغوا أبناء بلدهم عما ينتظرهم. هل أراد أخاماس أن يصل إلى ما حدث الآن؟ هل يمكن أن يكون الإنسان شريرا إلى هذا الحد؟

لويكون الذي قام بحساباته الخاصة، لم يتحمل الصمت، جرى إلى اويستروس، حيث توقع وجودي أيضا، أراد أن يخبرنا، أراد أن

يتشاور معنا عما يجب فعله. وجد اويستروس يصارع من أجل حياة أريتوسا التي أصيبت بالطاعون. علم بما كتموه عني أيضا، العجوز، الكريتي، مرض أولا، أصرت أريتوسا أن تعنى به حتى مات، دفنوه في الفناء الداخلي دون أن يسلموه لقيادة البحث عن الجثث التي تمشط المدينة. لويكون، قال لي أويستروس، ألقى بنفسه على أريتوسا بعينين دامعتين، مسدها، قبلها، تضرع إليها أن تعيش، أن تعيش من أجله، كانت لا تزال تستطيع أن تبتسم، وعدته بذلك هامسة، تلقاه كوعد حب، فقدت وعيها، بقي إلى جانبها. إنه الآن أيضا إلى جانبها. انطلق اويستروس في تلك الليلة، حين انخسف القمر ليبحث عني. وجدني عند الصباح تقريبا. كان ذلك متأخرا.

سيصبح الوقت ضيقا.

كيف كان ذلك. نهضت من النوم القصير، وعيت الأصوات التي أيقظتني، والتي تبعتها وأنا أراقب اختفاء القمر بخوف. أصوات أليفة، موسيقى، إيقاع، سرت في دمي وقادتني إلى مجموعة النساء الكولخيسيات اللاتي احتفلن على جهة الجبل المعاكسة للمدينة في موقع يصعب الوصول إليه بعيد ربيعنا، عيد ديميتر الذي يبدأ بالسير على الجمر. نظرت من الحافة، من الدغل الشائك الذي أحاط بمكان الاحتفال. أمسكن بأيدي بعضهن وركضن بسرعة فوق المساحة المغطاة بالجمر، وهن يصحن بفرح ويضحكن. رأيت ليسا، وأرينا. أخذ قلبي يدق بسرعة، يجب أن أكون معهن. ركضت إلى النساء، لم يعظمنني، حيينني كما لو كن يتوقعن قدومي، مددت يدي، أخذتني امرأتان في وسطهما، تهيأتُ، كما كنت قد تدربت على ذلك في البيت

كثيرا، صحت: هيا!، ركضنا معا فوق مساحة الجمر. عشت مرة أخرى سعادة القداسة، صرخت من الفرح مثلهن، مرة أخرى!، صرخت، أمسكت إثنتان أخريان بيدي، ركضنا، ومرة أخرى وأخرى، بقي أسفل قدمي أبيض دون أذى. في نفس اللحظة أعطتنا السماء إشارة: ظهرت حافة القمر الدقيقة مرة أخرى كهلال فضي انتشر سريعا. هللنا. وهكذا لم يقض علينا. أخذت الغار الذي أعطيته لأمضغه، والذي منحنا النشوة، حتى أننا رأينا ديميتر تمضي في الليل في عربتها صائحة، صحنا معها وبدأنا رقصتنا التي أصبحت حامية أكثر فأكثر، رقصة المتاهة. أخيرا عدنا إلى أنفسنا تماما، أخيرا عدت إلى نفسي تماما. لم يبق وقت طويل على انبلاج الصبح.

ثم سمعنا الفأس.

يقول اويستروس: ما كان ليعثر علينا لو لم يسمع هو الآخر الفأس ويتبعها، بينما كان الشعور بالكارثة الذي رافقه قادما من كورينث يتعاظم طول الوقت. هكذا كان حالي أيضا. كانت النشوة، كان الفرح قد تبدد بضربة واحدة. لم أرد أن أصدق ما أسمع. في بستاننا المقدس يقطع أحدهم شجرة. كان المشؤوم هالكا. لم أعرف ما أفعل سوى أن أترنم بصوت عال ثانية بالأغنية التي كنا قد قطعناها لتطغي على ضربات الفأس. فحت النساء في وجهي، أغلقن فمي، رأيت وجوههن المشوهة، كن يكرهنني، وكنت أكرههن. في كتلة واحدة أسرعن إلى البستان، سحبنني معهن مرورا باويستروس الذي تراجع لأنهن لم يلاحظنه، قبض علي، أمسك بي، حررت نفسي، لم أر، لكني سمعت. سمعت عويل النسوة، كولخيسياتي، سمعت الصرخة الحيوانية لرجل أعرف صوته. تورون، كان ذلك تورون. عرفت ما حدث. قطعن

له ذكره. أدخلنه في السفود وحملنه أمامهن، بينما كن يتابعن العويل بغير وعي، ليحرمن المدينة من النوم.

يسود الآن في حي الكولخيسيين صمت القبور. جرت عملية المعاقبة في نفس الصباح. كل الذين استطاع جنود الملك القبض عليهم سحقوا. إنه لعزاء أن يكون بعض النساء والفتيات قد استطعن الهروب إلى أرينا في الجبال.

ولكن فيم تراني أفكر. كلمة مثل عزاء. لقد محيت في داخلي مثل كلمات كثيرة أخرى. ينتظرني العجز عن الكلام. تورون، الناجي مرة أخرى تورون، ذكر اسمي. كان لا بد لذلك أن يحدث. كان وجهي هو أول ما رآه حين استعاد وعيه. ضد توسل اويستروس أن أذهب معه، قال إنه سيخفيني، وأن علي أن أترك الرجل، الذي لم تعد مساعدته ممكنة على أية حال،في مكانه، ضد أمره الغاضب اقتربت من تورون الغائب عن الوعي. كان ممددا قرب شجرة بستاننا المقدس، صنوبرة قطعها ليعاقب الكولخيسيين الذين جلبوا كارثة الطاعون والآن أيضا خسوف القمر إلى كورينث، هكذا أفاد. بالمناسبة. إنه لا يموت. كان لدي في الكيس الذي أحمله معي دائما خلاصات نباتات توقف النزيف وتعجل بشفاء الجروح. أوعزت لاويستروس أن يصنع من جذعين صغيرين وبعض الأغصان نوعا من النقالة وأن يحمله، تورون، معي هبوطا إلى المدينة. انحسر الفجر أمام الشروق، وصلنا قلعة محاصرة. حراس في كل الزوايا، قطعات مسلحة تطوف المدينة في إتجاه المنطقة الخارجية. أمكن إقناع ضابط شاب أن يرسل إثنين من الجنود مع النقالة إلى القصر. تركنا نذهب دون مضايقة، وهو أمر غريب بما يكفي. افترقنا في ساحة السوق. لم نتعانق. ألقى اويستروس

يده بثقل على كتفي، لم يطلب مني ثانية أن أذهب معه. فهم أن علي أن أذهب إلى الطفلين. لم أره منذ ذلك الوقت. لا أعرف شيئا عن أريتوسا.

نجا كوخنا من بعثة العقوبات، علمت أن لياسون دخلا في ذلك. لم تبق ليسا مع النساء المعولات، كانت قد ركضت إلى البيت، إلى الطفلين. هذا ما لا أنساه لها. بقيتْ خرساء.

خرساء مثلي، حين جاءوا وألقوا علي القبض. قيل إنني قدت النسوة اللائي مارسن العنف مع تورون. لم أرد. كل شيء مضى وفق خطة لم يعد لي تأثير عليها. أخذوني في وقت مبكر صباح هذا اليوم. قالوا إلى المحاكمة، وأتوا بي إلى هنا في هذه الغرفة الصغيرة المظلمة.

إنهم لا يزالون يتشاورون. أسمع خطوات تهبط الممر. خطوات رجالية متعبة متثاقلة. إنهم يقتربون، رجل عجوز يجر نفسه مارا ببابي، يرى الحراس، ثم يراني، يقف، يستند إلى إطار الباب، يحدق فيّ. لويكون. شبح كان مرة لويكون. نصمت طويلا، حتى أستطيع أن أهمس: أريتوسا؟ يوميء برأسه، يبتعد عن إطار الباب، يمضي متجها إلى قاعة المرافعة.

وإذن فقد مضى الوقت مرة أخرى. ستفتح الآن الأبواب الكبيرة للقاعة. سيبلغ الآن الساعي الذي كان ينتظر دوره في الخارج. ينطلق الآن، يقترب. يملؤني الحنين الآن إلى كل الأيام التي سيسرقونها مني. إلى كل إشراقات الشمس. إلى وجبات الطعام مع الأطفال، إلى المعانقة مع اويستروس، إلى الأغاني التي تغنيها ليسا. إلى كل المسرات البسيطة، الوحيدة الباقية، تركتها الآن كلها ورائي. حضر الساعي.

ياسون: لو كانت ثمة ولادة أخرى، بدون المرأة تماما،
لكم كانت الحياة سعيدة

اوريبيدس، ميديا

ياسون

لا شيء من كل ما حدث كنت أريده. لكن ما الذي كنت أستطيع فعله. لقد مضت إلى حتفها بظلفها. المتعجلة. أرادت أن تريني. لقد جعلت همها أن تسحقني. ولو قطع المرء أوصالها: ستبقى عيناها دائما. إنهما لا تكفان عن التحديق فيَّ.

في اللحظة الأولى. حيث دخَلتْ الصالة يقودها الرسول، بحثت عني فقط. وجدتني، أرغمتني على النهوض، من خلال نظرتها وحدها. كما لو كان سيعلن الحكم علي أيضا. لم تنظر إلى متحدث الملك، فقط إليّ. صّعدت جسارتها إلى الذروة، ولكن ما الذي لديها لتخسره في الآخر.

لم تكن لتختلف الحال لو أنني وقفت في المجلس متبجحا ودافعت عنها. ولكن بأي شيء، وعلامَ؟ أنها لم تكن مشتركة في ذل تورون المسكين، ولكن في إنقاذه؟ ما كان أحد سيصدقني، ولكانوا قد أخرجوني أنا أيضا من الصالة. في كل الأحوال انتبهوا كيف أتصرف.

أيتها الآلهة، هاته الكولخيسيات المجنونات. يقطعن ذكر الرجل. نحن جميعا، نحن الرجال في كورينث شاركنا بالشعور بهذا الألم. مؤكد تماما، لم ينجب طفل في الليالي قبل معاقبة الكولخيسيات وإصدار الحكم على ميديا، ما من رجل كان قادرا على الإنجاب. لمسوا نساءهم بصلابة، يقال أن بعضهم ضربهن، واختفت الكورينثيات في البيوت أو مشين منكسات الرؤوس في الشوارع، كما لو أنهن، كل واحدة منهن، قد شهرت بتورون المسكين، يتملقن رجالهن، يحيين

بصراحة العقوبة الصارمة للمذنبين ويطالبن دون تحفظ بأقصى العقوبات لميديا، في مقدمتهن أولئك المدينات بالشكر لها، كالمعتاد. وإذا مرت هذه الأوقات الشريرة واستعدنا جميعا هدوءنا، فسيكون رجال كورينث في الأعلى ونساؤها أكثر انكماشا. هذه هي نهاية الأغنية.

كان ينبغي أن يناسبني، لكنه لا يناسبني. لم يعد ثمة ما يفرحني. لقد تنبأتْ لي بهذا. لستُ محتدا، كلا، أنا أقرب إلى أن أكون حزينا، أو مشفقا، هو ما كان قلة حياء. لقد فرطت نفسها بكل تعاطف. هذا ما قيل لي في المجلس، حين حاولت أن ألتمس تخفيفا لها، رغم أنه لم يفتني أن أوكد عظِم خطئها، وإلا لكانوا قد مزقوني إربا. هنا ذكرني أخاماس بعلاقتي بميديا، متفهما، من رجل لرجل، ووقفت أنا هنا مثل ثور ولم يطرف لي جفن حين كشف هو، أخاماس، أن فضائلها تكمن في قدراتها كإمرأة، من يريد أن يؤاخذني على أنني أستخدمتها. ولكني من خلال ذلك طبعا أصبحت متحيزا. وددت لو ضربته على وجهه. وبدلا من ذلك جلست ولم أرفع بصري، ناهيك عن أن أتحدث ثانية. كان كل شيء متفقا عليه. تحدثوا بأدوار مقسمة بينهم. كان الحكم مثبتا. لا أدري لأي شيء احتاجوا إلى هذه المسرحية. تظاهروا وكأنهم يحملونها محمل الجد.

لماذا ذهبت إليها مرة أخرى. لماذا لم أوفر هذا على نفسي. كانت تحزم صرتها. لم تكد ترفع بصرها. آه ياسون، قالت. هل علي أن أوفر لك أيضا ضميرا مرتاحا. وكنت أريد أن أوضح لها فقط كيف سار كل شيء وأن واحدا مثلي ما كان ليقدر على شيء. قهقهت وقالت،

واحد مثلك، سيعطى بعد وقت قريب إبنة الملك زوجة. لكن أقول لك، لا تسيء لغلاوكا. إنها تحبك، وهي رقيقة، رقيقة جدا. لكنها على أية حال ليست ملكة، وأنت يا عزيزي ياسون، إنك لا تصلح ملكا لكورينث، وهذا هو الأفضل، هو ما أستطيع أن أقوله عنك الآن. لن تفرح بذلك. لن تفرح كثيرا بوجه عام. أن الأمرمرتب هكذا، ليس الذين عليهم أن يتحملوا الظلم وحدهم، وإنما أيضا الذين يظلمون، لا تكون حياتهم سارة. إنني أتساءل بوجه عام عما إذا لم تكن الرغبة في تدمير حيوات أخرى راجعة إلى أن المرء لا يملك إلا القليل من الرغبة والمسرة في حياته هو.

هكذا تكلمَتْ، وازددتُ غضبا. ها أن المرء يتجاوز الممنوعات ثم يوضع في صف الأشكال القاتمة حول أخاماس، مع هذا البريسبون الذي لا حدود لإعجابه بنفسه، الذي دعي كشاهد أمام المجلس ولم يعد يمكن وقف إدعاءاته بالأهمية. لم أكن قد رأيته فترة طويلة، وكانت تقاسيم وجهه المترهلة قد شوهته، كان مستعدا لأي شهادة ضد ميديا. استطاع أعضاء المجلس أن يستمعوا براحة محتقرة كيف تُشتم المدعى عليها من قبل أحد أبناء بلدها بعبارات نابية. هذه اللغة غير مألوفة في القصر، الصبي الأحمق اعتقد أنه يستطيع أن يبيح لنفسه كل شيء، ترك يتباهى دون رادع، وحين أراد أن يستاء من أن ميديا منعت الكورينثيين من قتل جميع السجناء في المعبد وحسب قاطعه أخاماس: يكفي!، فأغلق بريسبون فمه الأحمق. لقد أدى حصته. زمنه يقترب من النهاية، لكنه فقط لا يعرف هذا. أما أنا فقد تعلمت قريبا من الملك أن أفسر الإشارات.

أغاميدا تختلف. إنها أذكى من بريسبون. ما كانت العائلة المالكة تستطيع أن تتمنى مدعية ضد ميديا أكثر إقناعا، بالذات لأن أغاميدا تحفظت في أن تَصدر عنها كلمة واحدة للتشكيك ناهيك عن الاتهام ضد عدوتها اللدود. كان علي أن أعجب بها ضد رغبتي. استطاعت أن تخفي أنها تكره ميديا، وأنها منافستها طالما عاشت داخل أسوار هذه المدينة. أدركتُ أنه لا يوجد مكان لكلتا المرأتين في هذه المدينة. أيدت أغاميدا رجم ميديا لو لم تكن وسيلة النفي قائمة، والتي تعادل غالبا حكم الموت، رأيت في عينيها شهوة قتل بادرة، بينما هي مسيطرة على نفسها ظاهريا وضعت صورة لحياة وسلوك ميديا في كورينث، تشبه صورة ميديا التي نعرفها، فقط أن قلبت تفسير كل فعل من أفعالها أو تركها ليبعث أمامنا في الآخر شخص يعمل منذ وقت طويل على سقوط العائلة المالكة لكورينث. مرة كان علي أن أقهقه، حين سمّت اهتمام ميديا بغلاوكا وسيلة غادرة بوجه خاص، لبلوغ هدفها. هنا نبهتني نظرات الآخرين، كم كان ضحكي غير مناسب. لم تُبد غلاوكا إلى جانبي أي انفعال. وتكدرتُ حين ادعت أغاميدا أن ميديا استغلتني أنا أيضا لتتغلغل إلى المجال الداخلي للقصر حيث أنها جعلتني أعتقد أنها زوجتي وأنني زوجها، بينما حققت حاجاتها منذ وقت طويل في مكان آخر.هنا جلست مثل كلب مبلول وكان علي أن أسمع اسم عشيق ميديا، حيث كان لدى أغاميدا جواب على كل سؤال، وأعدت لكل زعم الأسماء المناسبة والتصوير الدقيق للظروف. إنها قاتلة، وقد ازداد مع نفوري منها إعجابي بها. اويستروس إذن. حجار. أيتها الآلهة.

كادت أغاميدا أن تكون قد ألقت لكل من في المجلس بملاحظة كما لو كانت مصادفة وعارضة، اسم، شبهة لها علاقة بميديا، كان عليه أن يقضمها وجعلته غير قادر حتى على أن يفكر فقط في أي شيء لصالحها، مثلي. حين أدخلت أخيرا شعرت فقط بالغضب. كنت الآن أمام جميع الناس الرجل المخدوع وليست هي المرأة المهجورة كما ينبغي أن يكون. تستحق ما حصل، العاهرة.

نفي.

ليس ذلك بالغ الشدة. هل شحبت؟ لم أنظر إليها.

والطفلان؟

هنا انفعلت، بحثت عن عيني ثانية، لكنها لن تجدهما.

دون الطفلين، قال كريون.

كانت هي المرة الأولى التي تكلم بنفسه فيها. سيربى طفلا ياسون في كورينث بطريقة تليق بهما. في القصر.

هنا رأيتها تترنح، ولكن قبل أن يتمكن الحرس من الإمساك بها، تمالكت نفسها.

ما يثير الدهشة أن كلتيهما، أغاميدا وكلاوكا، تبذل جهدها، لإعطائها الطفلين. كانت لديهما أسباب مختلفة لذلك. رغم أنه، إذا لم تخنّي الذاكرة، كان ثمة سبب تشتركان فيه: لم تريدا أن يطرح أبناء ميديا ذات يوم كمرشحين لعرش كورينث. من يقول أنني سأمنح هذه الغلاوكا المسكينة طفلا، إذا أصبحت زوجتي. لا تنتابني رغبة فوارة حين أتلمس عظامها عبر ثيابها السوداء عديمة الشكل. رأيت نظرة أغاميدا المخمنة تنتقل مني إلى غلاوكا، رأيت أن غلاوكا رأت هذه

النظرة وفهمتها تماما كما فهمتها، ثم سمعتها تتحدث، بصوت منخفض حقا، ولكن أن تكون قد تحدثت في هذا الاجتماع الرجالي بوجه عام فهو أمر غير مقبول.

يجب أن يعطى الطفلان للأم، قالت. لا ينبغي أن يكون المرء قاسيا دون مبرر. كان هذا رأيها، أنا متأكد من هذا. ولكن كمنَ خلف هذا الرأي عدم الوثوق مما إذا كانت هي نفسها قادرة أن تمنح كورينث وريثا، وعدم الثقة هذه هي التي منحتها الشجاعة لتتحدث ضد القسوة.

اقتيدت ميديا خارجا. غادر الملك وحاشيته القاعة، رقاب متصلبة، ووجوه مغلقة. تبعتهم مع غلاوكا. كانت تبكي. حين عبرنا فناء القصر، وبلغنا البئر، بدأت تتشنج، أنطلق ذراعاها في الهواء، انهارت قربي، خرج الزبد من فمها. كانت أغاميدا على الفور إلى جانبها، كما لو كانت تنتظر النوبة. أشعر بالدوار. ما الذي ينتظرني.

تجولت في المدينة، تجنبني الناس، فجأة وقفت أمام البيت الصغير لصق السور. أرادت ليسا منعي من الدخول، قالت ميديا: دعيه. سألتْ: ماذا تريد بعد. أغاظتني لهجتها. أردت أن ترى أنها لم تكن على حق. أردت أن تعترف: انني لم أكن قادرا على مساعدتها. ربطت صرتها. ربطت منديلا حول رأسها. قالت: آسف من أجلك يا ياسون.

هنا ذهبت أبعد مما ينبغي. ما كان علي أن أقبل هذا. كنت أستطيع شيئا آخر أيضا. أن أطلق لغضبي العنان. أسحبها وأحصرها إلى الحائط. لا يهين المرء ياسون دون أن يعاقب. أن تكون قد لاحظت أن ياسون يستطيع أن يدع غضبا رجوليا عنيفا من حيل النساء

يتصاعد فيه، وأنه يستطيع أن يكون قويا جدا، حين يكون اللحم الناعم الذي أنشب فيه أظافره، يتراجع تحته، حين يرى في عين المرأة أخيرا شيئا يشبه المباغتة، قبل أن تغمض عينيها وتدير رأسها وتترك ما لا يمكن تجنبه يحدث. نعم. لقد فهمتُ. هذا هو المقصود. يجب أن نضاجع النساء. يجب أن نكسر مقاومتهن. بهذا فقط نستخرج ما منحتنا أياه الطبيعة، الرغبة التي تشطف كل شيء.

لا نظرة، لا كلمة بعد. خرجت. لم أرها ثانية.

يشبه الكوكب من منظور معين الأرغو:
بلا هدف، بمهمة ثانوية،
معرضا للمغامرت المتناهية للزمن.

ديتمار كامبر

لويكون

ها هي تقفز ظاهرة ثانية، نجومي. كم أكرهها، هذه التكرارات المجدبة. كم يقرفني هذا كله. لا أستطيع أن أقوله لأحد، ولكن لم يعد أيضا أحد هنا يريد سماعه. أجلس هنا وحيدا، أحتسي النبيذ وأراقب مسار النجوم. ويكون على أن أرى الصور مرة بعد أخرى، سواء أردت أم لم أرد، أن أسمع الأصوات التي تنثال علي. لم أكن قد عرفت ما يحتمله الإنسان، الآن أجلس هنا ويتعين عليّ أن أقول لنفسي، على هذه القدرة في تحمل ما لا يُتَحمل والاستمرار في العيش، وفعل ما اعتاد المرء فعله، على هذه القدرة الغريبة يستند بقاء الجنس البشري. لو كنت قد قلت هذا سابقا، لكانت هذه كلمات متفرج، إذ يكون المرء متفرجا ما دام لا يوجد إنسان قريب إليه إلى الحد الذي يجعل نكبته تمزق قلبه.

سميت أكثر النجوم ضوءا والتي لم يكن لها اسم بعد أريتوسا، وفي كل مرة أشعر بنفس الألم حين تغيب في السماء الغربية، كما يحدث الآن. بين كل هذه العوالم البعيدة، وحيدا في عالمي، الذي يقل إعجابي به كلما عرفته بدقة أكبر. وأدرك، انني لا أستطيع أن أنكر هذا. مهما امتحنت نفسي. مهما كنت لا أريد أن أدرك نتائج هذا الامتحان، لا أجد واحدا من فظائع الفترة الأخيرة التي كنت شاهدا عليها لم أفهم فيه كلا الطرفين. لم أعذرهما، ولكن فهمتهما. الإنسان في عماه. يبدو لي هذا القسر للفهم مثل نقيصة لا أستطيع التخلص منها تميزني عن الآخرين. عرفت ميديا ذلك.

كيف أستطيع أن أنسى تلك النظرة الأخيرة، التي ألقتها علي حين ألقي بها عند البوابة الجنوبية خارج المدينة بين حارسين يمسكان بها من ذراعيها. بعد أن اقتيدت كما يفعل عادة مع كبش الفداء في شوارع مدينتي كورينث المحاطة بجمهور مزبد كراهية، صارخ، باصق، ملوح بالقبضات. وأنا، من سيصدقني، شعرت بشيء يشبه الحسد لهذه المرأة، المتسخة، الملطخة، المنهكة التي نفيت من المدينة بدفعة من الحراس ولعنة من الكاهن الأعلى. حسد، لأنها، هي الضحية البريئة، كانت متحررة من الإزدواجية. لأنه لم يمر فيها صدع، ولكن فصل بينها وبين اولئك الذين أنكروها، أدانوها، الذين دفعوها عبر شوارع المدينة، شتموها وبصقوا عليها. فاستطاعت أن تنتصب من القذارة التي رماها المرء فيها، أن ترفع ذراعيها ضد كورينث، وتستطيع أن تعلن بآخر قوة في صوتها، كورينث ستندثر. نحن الذين وقفنا عند البوابة سمعنا التهديد وعدنا صامتين إلى المدينة الهادئة هدوء الموتى، التي بدت لي بدون المرأة فارغة. ولكن في نفس الوقت مع العبء الذي حملنيه مصير ميديا، شعرت بالإشفاق على الكورينثيين، هؤلاء البؤساء الذين أسيئت قيادتهم، الذين لم يستطيعوا أن يتخلصوا من خوفهم من الطاعون ومن ظواهر السماء المهددة ومن الجوع ومن غزوات القصر بطريقة أخرى غير أن يلقوه على هذه المرأة. كل شيء بالغ الشفافية، كل شيء بالغ الوضوح، إنه يبعث على الجنون.

الطاعون يتراجع، لقد انحسر عن الأحياء الأغنى، لا زلت أرى من برجي عربة جثث أو اثنتين كحد أعلى تمضيان قبل حلول الظلام

باتجاه المدينة الميتة. يستطيع الكل أن يرى أننا فسرنا إرادة الآلهة بصورة صحيحة حين طردنا الساحرة من المدينة. أقول "نحن" ولا أكاد أشعر بالذعر. نحن الكورينثيون. نحن العادلون. أنا أيضا لم أفعل شيئا لأنقذها. أنا كورينثي. الأفضل، أن أعترف به، الأفضل، أن أتذوق الحزن والخجل الذي يسوقني ليلة فليلة إلى هذا البرج. لأفكر فيما يمكن أن يجعلني متعقلا إذا عاشت أريتوسا، ولم تعد تريدني. سأعيش مع هذه الحقيقة أيضا. أعرف هذا. ولن ألقي بنفسي إلى الأسفل، مهما وقفت أمام سياج هذه الشرفة ونظرت إلى تحت. حافظت على سلامة جسدي دائما. هكذا خلقنا، لا بد أن يكون لذلك معنى. وأحيانا أتساءل، ما الذي يعطي إنسانا، ما الذي أعطى هذه المرأة الحق أن تضعنا أمام قرارات لسنا قادرين عليها، لكنها تمزقنا وتدعنا كمغلوبين، كمخفقين، كمذنبين.

لماذا لا أستطيع أن أكون مثل اويستروس. يعمل اويستروس مثل من أصابه مس في مغارة عمله التي اعتصم فيها، حيث لا يدع أحدا يدخلها. إنه يهمل نفسه، لا يغتسل، يدع لحيته وشعره الأحمر ينموان، لا يكاد يأكل، يشرب الماء من الجرة الكبيرة التي كانت لدى أريتوسا، ويضرب بغضب يخيفني على كتلة صخر. لا يتكلم، يحدق فيّ بعينيه الملتهبتين من غبار الحجر ومن الأرق، لا أدري إن كان يتعرف عليّ حتى. لقد تغير إلى درجة لا يعرفه المرء فيها. لو مضى في الشارع سيجري الأطفال أمامه صارخين. لا أدري ما الذي يريد أن يستخرجه من حجره، في المرة الأخيرة، كما أعتقد، كان يمكن التعرف على ملامح أشكال في إلتفاف شديد، أعضاء في نوع من الكفاح

اليائس، الكل ضد الكل، أو في صراع الموت. لا يستطيع المرء أن يسأل. إنه يعمل حتى الموت. هذا ما يريده.

فقَدَ اويستروس كل معيار، كما فقدت ميديا كل معيار. كانت في الآخر دون تقدير مثلما احتاجها الكورينثيون، إمرأة مولعة بالشجار. كيف اقتحمت معبد هيرا ممسكة بالصبيين الشاحبين الخائفين، دفعت الكاهنة التي وقفت في طريقها جانبا؛ كيف قادت الطفلين إلى المذبح، وصرخت في الإلهة، وهو ما كان يشبه تهديدا أكثر مما يشبه صلاة: إن عليها أن تحمي هذين الطفلين، لأنها، الأم، لم تعد قادرة على ذلك. كيف فرضت على الكاهنات أن يأخذن الطفلين، وهو ما وعدن به بدافع الخوف والإشفاق. ثم كيف تحدثت مع الطفلين، حاولت أن تطمئنهما، احتضنتهما، وغادرت المعبد دون أن تنظر حولها ثانية، لتسلم نفسها مباشرة إلى الحراس المنتظرين. كيف أطلقت طول الوقت حين اقتيدت في المدينة ككبش فداء أغنية مخيفة تحرض الناس على جانب الشارع أن يخنقوها. لا بد أنها استهدفت أن تقتل، لكن كان لدى الحرس أمر بأن يخرجوها من المدينة حية.

فيما بعد، بعد أن حدث الأمر المرعب، أرسلوا أوامر أن يعثروا على ميديا، بحثوا عن ليسا التي اختفت أيضا، استجوبوا الناجين القليلين من الكولخيسيين استجوابا مخجلا ليرغموهم على البوح بمكان إقامة المرأتين. كانتا وتبقيان كما لو أن الأرض ابتلعتهما، رغم أن المرء يجب أن يسير خارج أسوار المدينة أياما قبل أن يجد مأوى. الآن يبحث المرء عن كل من ساعد المرأتين، الذين يمكن أن يكونوا قد مضوا بهما إلى طريق الخيول، من أجل فعل شيء فقط وليتجنبوا

الاعتراف بأنهم عاجزون وغير قادرين على الانتقام لموت إبنة الملك. ولأن المرء يريد أن يقبر الأساطير التي تنشأ لدى الشعب المؤمن بالخرافات في مهدها: إن الإلهة نفسها، أرتميس رفعت الهاربتين بعربة أفاعيها عن الأرض واختطفتهما إلى روضة آمنة.

غلاوكا المسكينة. كان ذلك يوم طرد ميديا. كنت أقرفص مثل مخدر في أحد ممرات القصر. لم ألتفت إلى صراخ النساء الذي وصلني من فناء القصر، كنت أشعر بالاحتقار لكل ما له علاقة بهذه العائلة المالكة. انتبهت أولا حين رأيت ميروبا، الملكة العجوز تسندها خادماتها تجر نفسها عبر الفناء إلى البئر الذي تجمع حوله صف النساء الصارخات. ثم رأيت الصف ينقسم، رأيت ثلاثة عبيد يسحبون ثقلا غريبا بحبل من البئر، يرتدي البياض كاملا، غلاوكا.

وضع المرء الجسد أمام أقدام الملكة، رأيتها تجثو على ركبتيها وتضع رأس الإبنة الميتة في حضنها. بقيت هكذا طويلا، وساد الهدوء تدريجيا كما لم أشهده هناك من قبل. بدا لي كما لو أن هذا الصمت يخفي شيئا يشبه الحزن والعدالة لكل الضحايا الذين تركهم الناس الذين أصابهم العمى في متاهتهم وراءهم. في هذا السكون رأيت ياسون يترنح في الفناء كما لو كان قد تلقى ضربة على رأسه. لم يلتفت إليه أحد. يقال أنه الآن يضطجع ليلا ونهارا تحت هيكل سفينته نصف المتعطن، الذي وضعوه قرب الشاطيء مقلوبا، وتيلامون، رفيقه القديم، يأتيه بكفاف يومه من الطعام والشراب. أحيانا في عمق الليل، أفكر أنه أيضا لا يستطيع النوم، أن عينيه أيضا تبحثان في السماء، أن نظراته ونظراتي يمكن أن تلتقيا عند كوكبة الجبار التي

تسود السمت هذا الشهر. لا أستطيع أن أشعر بالضغينة إزاء ياسون. كان ضعيفا جدا أمام خصم مثل أخاماس.

إنه يسود الآن الساحة. كان هو الذي أعلن البلاغ الرسمي حول موت غلاوكا، الذي يجب على الكل التمسك به، وإلا فإنه هالك: أرسلت ميديا ثوبا مسموما إلى غلاوكا، هدية وداع مروعة، أحرق الثوب جلدها، غلاوكا المسكينة، حين لبسته، حتى أنها ألقت بنفسها دون وعي وتحت تأثير الألم في البئر بحثا عما يبردها.

حسنا، هذا القصر مكان له مئة أذن ومئة فم، وكلها تهمس بشيء آخر: هذا الثوب الأبيض، الذي لبسته ميديا في عيد ارتيمس قدمته هدية لغلاوكا قبل المحاكمة بوقت قصير وقالت لها، ليكن هذا ثوب زفافها، وأنها تتمنى لها حظا سعيدا، وقد شكرتها غلاوكا بعينين دامعتين على هذه الهدية. لكن بعد ذلك، حين غادرت غلاوكا قاعة المحكمة، بعد أن أعلن الحكم على ميديا واقترب طردها أكثر فأكثر، أصبحت أكثر قلقا بشكل ملحوظ. تجولت في القصر على غير هدى ووجب العثور عليها أكثر من مرة في الزوايا البعيدة التي توارت فيها وإعادتها. لم ترد أن ترى ياسون مهما يكن، وتجنبت كريون بملامح الرعب. تحدثت مع نفسها فقط، بطريقة متعجلة غير مفهومة. لم يستطع المرء أن يعرف، ما الذي كانت لا تزال تعيه. امتنعت عن الطعام، كما لوكانت تشعر منه بالغثيان. لم يرو لها أحد شيئا عما جرى خارج القصر، كان ذلك ممنوعا منعا باتا، لكن كان لديها حدس بذلك، وفي اليوم الذي أبعدت فيه ميديا مشت في غرفتها جيئة وذهابا وهي تفرك يديها يائسة وتبكي، أخيرا طلبت أن يؤتى إليها بثوب

الزفاف الأبيض ولبسته رغم اعتراض الخادمة. وفجأة هدأت تماما، كما لو كانت تعرف ما ينبغي أن تفعل، وقالت للخادمة بكلمات معقولة بأنها تريد أن تتنشق الهواء في فناء القصر، وهو ما أفرح جميع من كانوا قد عينوا لحراستها. وهكذا خرجت إلى الفناء، خلفها الخادمة وبعض الحراس الذين قادتهم بحيلة في دوائر تزداد ضيقا حتى اقتربوا من البئر. خطوتان سريعتان وكانت تقف على حافته. ثم خطوة تالية إلى الفراغ في داخله، في الأعماق. يقال لم تصدر عنها نأمة.

لم يرى الملك منذ ذلك أحدا، يقال إنه يقرفص في حجرته الأخيرة ولا يسمح لأحد غير أخاماس بالدخول عليه. إنه رجل مائت. خلف ظهره بدأ ت الصراعات على خلافته. ذلك لا يهمني. لست أيضا فضوليا بشأن ما سيفعله أخاماس، ليعزز نفوذه. بالطبع عليه أن يحاول أن يمحو الذكرى. أوعز إلى أعوانه بإبعاد بريسبون وأغاميدا من المدينة. وجعل المدخل إلى مغارة قبر إيفينوي التي بدأ كل شيء بموتها يُبنى. فرض على ميروبا، الملكة العجوز، عدم مغادرة البيت. أصبح على من كان شاهدا على دور أخاماس أن يخاف على حياته. أنا أيضا. في اليوم الذي ماتت فيه غلاوكا أرسل من يبلغني. وقفنا قبالة بعضنا أمام نقالتها. شيء ما في نظرتي جعله يضطرب فزعا. هذا الفزع هو الذي يحميني وكذلك عدم اكتراثي بمصيري. يحميني أنني أرى دخيلة الناس حتى الأعماق ولذلك، رغم أنه يبدو غريبا، فإني غير خطر. حيث أنني لا أعتقد أني أنا أو أي شخص آخر يستطيع أن يغيرهم، لن أتدخل في عجلة الموت التي يديرونها. كلا، إنني أجلس هنا وأشرب النبيذ الذي شربته مع ميديا، وأسكب من كل قدح بضع قطرات في

ذكرى الموتى. يكفيني أن أنظر إلى النجوم في مساراتها التي يمكن حسابها وأنتظر أن تخف قبضة الألم تدريجيا. هكذا يأتي الصباح، تستيقظ المدينة بنفس الحركات دائما، بنفس الأصوات دائما، سيبقى ذلك، وليحدث ما يحدث. سيعود الناس في بيوتهم الضيقة إلى الحياة اليومية، في الليل أنجب بعضهم طفلا، ينبغي أن تكون الحال هكذا، أنهم موجودون من أجل هذا.

ولكن هناك شيئا آخر خلاف المعتاد. جمهور من الناس يأتون من جهة مدينة المعبد. أتقدم إلى السياج. ها هم يجتمعون في الساحة، جمهور في مزاج الإنتصار. ماذا لديهم ليحتفلوا به. ينطلق منهم أزيز كالذي أعرفه من خلية نحل مهاجِمة. تبتلُ يداي بالعرق، يدفعني شيء للهبوط والإنضمام إلى هؤلاء الناس. لا يزال الإضطراب فيهم، لا يستطيعون التفرق، يبقون معا ويتباهون بما فعلوا. يموج الجمهور يمنة ويسرة، أجري من مجموعة إلى أخرى، أريد أن أسمع عما يتحدثون، إلا أني لا أجرؤ أن أفهمهم. أسمعهم يؤكدون مرة بعد أخرى، كان لا بد من ذلك. كان واضحا لهم منذ وقت طويل أنهم لن يستطيعوا أن يحتملوا هذا وقتا أطول. حيث لم يرد أحد أن يفعله، كان عليهم أن يفعلوه.

أرى من خلال الغشاوة على عيني رجل أخاماس الجديد قادما، غلاما ماكرا خشنا، سمعته عبر ضجيج خفقان قلبي في أذني يسأل عما يحدث، ولكن على نحو كأنه يعرف الجواب. صمت الجمهور، ثم نادى عديدون: لقد فعلناها. قضي عليهما. من، سأل الغلام. الطفلان! كان الجواب. طفلاها الملعونان. لقد خلصنا كورينث من

هذا الوباء. وكيف؟ سأل الغلام بسحنة متآمر، رجمناهما بالحجارة! زمجر كثيرون. كما استحقا.

الشمس تشرق. كيف تسطع أبراج مدينتي في بريق الصباح.

الرجال الذين لم يؤتمنوا على سر
ولادة الحياة،
يجدون في الموت، لأنه يسلب الحياة، مكانا
أعظم من الحياة نفسها.

أدريانا كافاريرو، رغما عن افلاطون

ميديا

ميتة. قتلوها. رجموها. قالت أرينا. وقد ظننتُ أن ميلها إلى الانتقام ينتهي عندما أذهب. لم أعرفها.

لم تعرفني، إلا أن ليسا، أمها، تعرفت عليها من خلال بقعة داكنة على مرفقها. كم ذُعرتْ. لقد غيرتنا الحياة هنا. المغارة. الشمس التي لا ترحم في الصيف، البرد في الشتاء. الغذاء المكون من غبيرات، خنافس، حيوانات صغيرة، ونمل. نحن ظل عصورنا الأولى.

أصابنا العمى، تحدثنا عن الطفلين كما لو كانا حيين. رأيناهما يكبران سنة بعد أخرى. سيثأران لنا. ولم أكن قد خرجت من ضواحي مدينتهم بعد حتى كانا قد ماتا.

أي مارد جلبته أرينا. هل تريد الآلهة أن تعلمني أن أؤمن بها ثانية. يا له من شيء مضحك. أنا الآن فوقها. حيث تتلمسني بأعضائها الوحشية فلا تجد بصيص أمل، لا أثر للخوف لدي. لا شيء لا شيء. لقد قضي على الحب، والألم أيضا يتوقف. أنا حرة. أصغي دون رغبات إلى الفراغ الذي يملؤني تماما.

يقال أن الكورينثيين لم ينتهوا مني بعد. ماذا يقولون. أنا، ميديا، قتلت أولادي. أنا، ميديا، أردت أن أنتقم من ياسون الخائن. من سيصدق هذا، سألتُ. قالت أرينا: الجميع، ياسون أيضا؟ لم يعد له الحق في الكلام. ولكن الكولخيسيين؟ إنهم جميعا موتى، عدا النساء في الجبال، وقد أصبحن متوحشات.

قالت أرينا، في السنة السابعة بعد موت الطفلين إختار الكورينثيون سبعة صبيان وسبع فتيات من العائلات النبيلة. حلقوا رؤوسهم. وأرسلوهم إلى معبد هيرا، حيث وجب عليهم أن يقيموا هناك سنة، لإحياء ذكرى طفليّ الميتين. وسيحدث هذا من الآن فصاعدا كل سبع سنوات.

هو ذاك. هذا ما يؤدي إليه. إنهم يعملون ليسميني الأسلاف أبض ا قاتلة الأطفال. ولكن ما قيمة هذا لهم إزاء الفظائع التي سيتذكرونها. فنحن غير قادرين على التعلم.

ماذا يتبقى لي. إنهم يلعنون. اللعنة عليكم جميعا. اللعنة عليكم خاصة أنتم يا أخاماس، كريون، أغاميدا، بريسبون. ستقبل عليكم حياة مروعة وموت بائس. فليرتفع عويلكم إلى السماء ولا يؤثر فيها. أنا، ميديا، ألعنكم.

إلى أين أمضي. هل يكمن التفكير في عالم، في زمن يناسبني. لا أحد هنا يمكن أن أسأله. هذا هو الجواب.

هذا الكتاب

بالمفتاح الذي يفتح جميع الأحقاب والذي ترى أننا نملكه، تفتح لنا كريستا فولف في هذه الرواية بابا إلى ماض يجد في الحاضر مثيلا له. لا تلبث ميديا إبنة الملك أييتس التي هربت من بلدها كولخيس لأنها رأت أباها العجوز المتشبث بالسلطة يقتل ابنه الذي أريد أن يحل محله، أن تكتشف أن كورينث، مدينة منفاها التي كانت تبدو وكأنها المكان الوحيد على الأرض [illegible]اد فيه الرخاء وتحققت فيه السعادة البشرية إ[illegible]ي مدينة بنيت على جريمة، وأن القصة نفسها تكررت هنا أيضا.

تشهد ميديا في منفاها الهزات الأرضية والطاعون والجماهير تبحث عن ضحية تلقي عليها مسؤولية شقائها، أو تصنع من كل شخص ما تحتاجه: المرأة الشريرة أو البطل.





منشورات الجمل